

فلا
التنوير الاسلامي

((٦٨))



الشيخ

عبد الرحمن اللمواكي

هل كان علمائنا؟!

تأليف
د. محمد عمار



الشيخ
عبد الرحمن الكواكبي
هل كان علمانياً؟

تأليف
د. محمد عمار



اسم الكتاب: الشرح مع الرحمن الكواكبي عن كتاب "عنايدنا"

المؤلف: د. محمد مصطفى

الترجمة: د. خالد

تاريخ النشر: الطبعة الأولى أغسطس 2006

رقم الأناقة: 2006

الترجمة الدولية: 15.000

أدوية العناية: 15.000
15.000 (02) 347 2864 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576

الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576

الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576

الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576

الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576

الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576

الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576
الترجمة: 15.000 (02) 346 2576



Enahda Misr

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/ CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © شركة نهضة مصر للتوزيع والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تحرير أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالصور أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر

تقديم

للتغريب والاستلاب الحضارى العديد من الطرق والوسائل
والأساليب:

■ فمنها الأسلوب المباشر والصريح، الذى يعرض أصحابه
النموذج الغربى فى النهوض والتقدم، قائلين تعالوا إلى هذا
النموذج، فهو الأقدر على تحقيق التقدم والنهوض للشرق
الإسلامى.. بل ولكل أنحاء العالمين - ولقد أثبت ذلك بنجاح
كبير فى عالم الشعوب الغربية.. وليس صحيحاً أن هناك
خصوصيات ثقافية وحضارية تمايز بين الأمم والشعوب..
فالطريق - كما قال الدكتور طه حسين فى مرحلة تبشيره
بالنموذج الغربى «واحدة واضحة بيّنة مستقيمة ليس فيها
عوج ولا التواء، وهى واحدة فذة ليس فيها تعدد، وهى أن
نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم، لنكون لهم أنداداً،
ولنكون لهم شركاء فى الحضارة، خيرها وشرها، حلوها
ومزها، ما يحب منها وما يكره، ما يحمد منها وما يلعن..
والعقل الشرقى هو كالعقل الأوروبى، يونانى الطابع
والتكوين.. لم يغير القرآن من يونانيته.. كما لم يغير الإنجيل
من يونانية العقل الأوروبى» [مستقبل الثقافة فى مصر ج ١
ص ٢١، ٢٢، ٢٩، ٤٥].

■ وغير هذا الطريق - الواضح والصريح - للتغريب، هناك طرق
يمعن أصحابها فى النفاق والإخفاء والتزييف والتلبيس.. وذلك

عندما يذهبون إلى دعوى علمنة الإسلام ذاته.. ومن ثم يقدمون علماء الإسلام، ومشاريعهم الإصلاحية باعتبارها دعوات علمانية.. ثم يقولون لنا:

- أليس هؤلاء هم زعماء الإصلاح في عالم الإسلام؟ إنهم علمانيون، يثبتون النموذج العلماني في التقدم والإصلاح.. فتعالوا نسير وراءهم في هذا الطريق - العلماني - فليس هناك طريق آخر سواه!

وإذا كنا قد عرضنا وفندنا وفضحنا هذا الأسلوب من أساليب الخبث العلماني في كثير مما كتبنا دفاعاً عن «التمايز الحضاري» للإسلام ونموذج في التقدم والنهوض.. وكان من حظ هذه السلسلة «في التنوير الإسلامي» تلك الدراسة التي قدمناها عن (ابن رشد بين الغرب والإسلام) - والتي فندنا فيها محاولات المتغربين مسخ هذا الفيلسوف المسلم.. والمتكلم الإسلامي.. والفقيه المالكي.. وقاضي قضاة الشرع في قرطبة.. وذلك بتقديمه على أنه «مادي.. وملحد.. وعلماني.. وتنويري.. بالمعنى الوضعي الغربي».

إذا كنا قد قدمنا تلك الدراسة عن ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥هـ / ١١٢٦ - ١١٩٨م] - في الحلقة الخامسة من هذه «السلسلة».. فإننا نقدم اليوم هذه الدراسة عن المصلح الإسلامي الكبير الشيخ عبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ / ١٨٥٤ - ١٩٠٢م]..

ذلك الذي حاول الحزب السوري القومي، وباحثه المثابر الأستاذ «جان داية» - ومن قبله زعيم الحزب «أنطون سعادة» [١٩٠٤ - ١٩٤٩م] - حاولوا «سرقة» الكواكبي من موقعه المرموق في صفوف زعماء الإصلاح الإسلامى، وتقديمه فى صورة العلمانى، الذي يدعو أمتة إلى سلوك طريق العلمانية الغربية للتقدم والنهوض.

لقد كان الكواكبي من أوائل زعماء الإصلاح الذين كتبنا عنهم - منذ مرحلة الدراسة فى كلية دار العلوم فى عقد الخمسينيات من القرن العشرين - ثم جمعنا وحققنا ودرسنا أعماله الفكرية الكاملة التى تصدر لها الطبعة الثالثة - مزيدة فى الدراسة وفى النصوص - هذا العام سنة ٢٠٠٦م.

وبهذه المناسبة، نقدم فى هذه «السلسلة» - هذه الدراسة التى ترفع الظلم عن هذا المصلح الإسلامى الكبير - وترد الافتراء العلمانى عن هذا العالم الفذ من علماء الإسلام فى عصرنا الحديث..

والله من وراء القصد.. نسأله - سبحانه - التوفيق والسداد..

د. محمد عتاقة

بطاقة حياة

- عبدالرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ / ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م].
هو: عبدالرحمن أحمد بهاني بن محمد بن مسعود الكواكبي.
- ولد في حلب سنة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٤ م، من أسرة «شريفة» ذات نفوذ علمي وإداري.. تتوارث الإشراف على نقابة «الأشراف» ويرتفع نسبها إلى الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه.
- ولقد تعلم الكواكبي العلوم الموروثة - علوم العربية والشريعة الإسلامية - كما تعلم العلوم الحديثة.. وأجاد - مع العربية - اللغتين التركية والفارسية.
- واشتغل الكواكبي بالصحافة، وهو في الثانية والعشرين من عمره، في صحيفة «فرات» - التي كانت تصدر بالتركية - في مناخ قرض فيه العثمانيون سياسة «التريك» على الولايات العربية.. «العثمانية» في المشرق العربي.. ثم أصدر - للمرة الأولى - صحيفة عربية - في حلب - هي (الشهباء).. فلما أغلقها الأتراك أصدر صحيفة (اعتدال) فلاقته ذات المصير.
- ولقد احتل الكواكبي عدداً من المناصب الإدارية والاقتصادية الهامة في ولاية «حلب» واحترف التجارة فترة من الزمن.. كما كان مرجعاً للمحاماة في القانون.. وعمل «عرضحالياً» يحرر ظلامات المظلومين ضد ولادة الأمور الأتراك!

■ دخل السجن سنة ١٣١٠ هـ / ١٨٩٢ م متهمًا بمحاولة اغتيال
الوالي التركي على حلب، وحكم عليه بالإعدام من القضاء
التركي في حلب.. فلما ثارت جماهير الولاية، وافقت الدولة
العثمانية على إعادة محاكمته أمام محكمة بيروت، فبرأته
المحكمة من التهمة التي حاولوا إلصاقها به، وهي الاتفاق مع
دولة أجنبية ضد الدولة العثمانية

■ هاجر الكواكبي - سرًا - إلى مصر سنة ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩ م..
ونشر فصول كتابه الفذ والفريد «طيانع الاستبداد ومصارع
الاستعباد» في صحيفة «المؤيد» بدون توقيع

■ طبع بمصر كتابيه «أم القرى»، وهو «مذاكرات» محاضر
اجتماعات مؤتمر جمعية أم القرى - الذي عقد بمكة - وحضره
ممثلون للأمة الإسلامية لدراسة أسباب تخلف المسلمين، وسبل
إنهاضهم. وكذلك «طيانع الاستبداد».. نشرهما باسم مستعار،
هو «الرحالة ك»:

■ قام برحلة إلى المشرق، زار فيها العديد من بلاد آسيا وإفريقيا
الإسلامية.. ومات وهو يعتزم القيام برحلة مماثلة إلى بلاد
المغرب الإسلامي.. وكتب عن رحلته هذه كتابًا ضاعت أصوله
قبل أن يرى النور.

■ عندما انتقلت روحه إلى بارئها - فجأة - في ٧ ربيع الأول سنة
١٣٢٠ هـ / ٤ يونيو سنة ١٩٠٢ م - صادر مندوب من قبل
السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ /

١٨٤٢ - ١٩١٨م) جميع الأوراق الخاصة بالكواكبي، حيث حُملت إلى السلطان، ولم يظهر لها أثر فيما بعد، وضمنها أصول كتابين لم ينشرا، هما «العظمة لله» و«صحائف قريش».

■ وفي فكر الكواكبي، اجتمعت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية مع الدعوة إلى تمييز الأمة العربية بالريادة والقيادة في المحيط الإسلامي، فامتزجت - عنده - العروبة بالإسلام، كأوضح ما تكون.. ومنه صدرت الدعوة لإعادة الخلافة إلى الأمة العربية، مع الدعوة إلى الجامعة الإسلامية التي تقيم اتحادًا تضامنيًا وتعاونيًا بين كل الدول والسلطنات الإسلامية.. لتجديد عز الإسلام.

■ وكان مذهب الكواكبي في الإصلاح هو مذهب المدرسة الإحيائية التجديدية، التي تدعو إلى البدء - في الإصلاح - بالأصول قبل الفروع.. وبالتربية للأمة وصولاً لسياسة الدولة وبالإصلاح الديني قبل الإصلاح الإداري والسياسي.. فالأمة قبل الدولة.. والدعوة قبل السياسة.

■ يضعه فكره الاجتماعي بين الرواد الأوائل لدعاة الاشتراكية في تراثنا العربي الإسلامي الحديث، والاشتراكية عنده نابعة من القرآن الكريم ومن الخلق العربي الذي صاغه الإسلام.. ومن المواخاة التي أقامها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

■ عندما حمل المشيعون جثمان الكواكبي ليواروه قبره - فى مقابر «باب الوزير» بسفح جبل المقطم بالقاهرة، كتبوا على قبره كلمة «الشهيد» لتشير بأصابع الاتهام إلى موته مسموماً بتدبير من السلطان عبدالحميد"

وعندما جددت مصر قبره. وتقلت رفاته إلى قبره الجديد.. كتب عليه بيتان من الشعر، لشاعر النيل حافظ إبراهيم (١٢٨٧ - ١٣٥١هـ / ١٨٧١ - ١٩٣٢م) هما:

هنا رجل الدنيا، هنا مهبط التقى

هنا خير مظلوم، هنا خير كاتب

قفوا واضربوا أم الكتاب وسلموا

عليه، فهذا القبر قبر الكواكبي

دعوى علمانية الكواكبي!

لقد بدأت علاقتي بفكر الكواكبي (١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ / ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م) في منتصف خمسينيات القرن العشرين، عندما كنت طالباً بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة قرأت كتابيه «طبائع الاستبداد» و«أم القرى»، وكتبت عنه وعن فكره بحثاً لـ «أعمال السنة» بالكلية. ثم نشرت هذا البحث في مجلة «الغد» - عدد يناير سنة ١٩٥٩ م

وفي منتصف ستينيات القرن العشرين، أعدت الطبعة الأولى لأعماله الكاملة، مع التقديم لها بدراسة وافية عن حياته وأفكاره. وهي الطبعة التي صدرت عن دار الكاتب العربي بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م

وعند ذلك التاريخ، بدأت المراسلات وتوثقت العلاقات بيني وبين حفيد الكواكبي - وسميه - المرحوم الأستاذ الجليل الدكتور/ عبدالرحمن الكواكبي، الذي كان مثالا قداماً للمثقف المتواضع، والنموذج الأمثل في الوفاء لحده العظيم، يبحث ويتفقب عن آثاره الفكرية المفقودة. ويتواصل مع المهتمين بفكره وتراثه من كل البلاد وجميع المذاهب والاتجاهات والديانات.

ولقد أعاننى هذا الإخلاص والدأب والتفانى - الذي توجهت علاقة صداقة حميمة بين أسرتينا - على أن تأتي الطبعة الثانية من هذه الأعمال الكاملة - التي أصدرتها المؤسسة العربية

للدراسات والنشر ببيروت سنة ١٩٧٥م - مزيدة ومستقلة على ما لم تشمله الطبعة الأولى من هذه الأعمال.

وعبر المراسلات والمقاسلات حدثني المرحوم الدكتور/ عبد الرحمن الكواكبي عن جهود الباحث اللبناني المسيحي «جان داية» - عضو الحزب السوري القومي الاجتماعي - في البحث عن آثار الكواكبي المفقودة، خاصة أعداد الصحيفتين اللتين أصدرهما مبكراً بمدينة حلب - صحيفتي «الشهباء» و«اغتيال» - ثم تمّ التوصل إليهما وبين «جان داية» - عبر المراسلات - ووجدتني العديد من المقالات التي نشرها في الصحف عن الكواكبي.

وعندما تم العثور - في ألمانيا - على بعض أعداد الصحف التي أصدرها الكواكبي، نشر «جان داية» كتاباً عن «صحافة الكواكبي»، ضمنه محتويات أعداد تلك الصحف، وصورة «زنگرافية» لاصطحاتها - ولقد نشرت هذا الكتاب مؤسسة (مكر) للأبحاث والنشر ببيروت سنة ١٩٨٤م.

وخلال هذه المراسلات وعبر هذه المقالات لـ «جان داية»، وضحت الفكرة المحورية الحاضرة لباحث مسيحي سوري قومي - على أن يهتم هذا الاهتمام الدؤوب بفكر الكواكبي وآثاره الفكرية. وهي فكرة السعي لإثبات علمانية الكواكبي، وريادته لفكرة فصل الدين عن الدولة، وعلمنة الإسلام في عصرنا الحديث!!

كانت تلك هي «الفكرة - الدعوى» التي خفرت «جان داية» - عضو الحزب السوري القومي الاجتماعي إلى الرهبة في محراب

فكر الكواكبي، ليثبت علمانيته، التي خالف فيها ومها - كما يقول - كل العلماء وزعماء الإصلاح في الإسلام!!

ومنذ اللحظات الأولى لإعلان «جان داية» عن هذه الدعوى، حدثني عنها المرحوم الدكتور عبدالرحمن الكواكبي - بل لقد توافق مع «جان داية» على الاحتكام إلى الفصل في هذه الدعوى، ولقد أبدت - يومئذ - ملاحظات عامة ترفض هذا الادعاء - ادعاء علمانية الكواكبي - وريادته الدعوة لفصل الدين الإسلامي عن الدولة - انطلاقاً من آثاره الفكرية، التي تضعه ضمن أعلام مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامي الحديثة التي دعت إلى تجديد الدين الإسلامي لتتجدد به دنيا المسلمين، والتي أكدت على أن سبيل الإصلاح في المسلمين هو الإسلام، لأنه السبب المفرد لسعادة الإنسان في المعاش والمعاد..

لكن «جان داية» ضل في طريقه، يجمع «الأدلة» على علمانية الكواكبي، حتى أصدر لهذه الدعوى كتاباً خاصاً، جعل عنوانه «الإمام الكواكبي.. فصل الدين عن الدولة»، نشرته دار سوراقيا للنشر بالمملكة المتحدة سنة ١٩٨٨م.

فلما جاءت هذه المناسبة - مناسبة إصدار الطبعة الثالثة من «الأعمال الكاملة للكواكبي» - كان لابد من دراسة «حيثيات» هذه الدعوى الخطيرة - دعوى علمانية الكواكبي - لتمثل هذه الدراسة لهذه القضية التقديم الجديد لهذه الطبعة الجديدة.. المزيد في النصوص والوثائق.. والمنقحة في الدراسة والتقديم

لقد كنا - ومعنا كل المشتغلين بالعلم والفكر الإسلامي في عصرنا الحديث وواقعا المعاصر - على يقين من أن أول من ادعى علمة الإسلام هو المرحوم الشيخ علي عبدالرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ / ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م) في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) سنة ١٩٢٥ م. ولقد أثبتنا في الدراسات والوثائق التي نشرناها حول هذا الكتاب تراجع الشيخ علي عبدالرازق عن هذه الدعوى (انظر في ذلك كتبنا «الإسلام والسياسة الرد على شبهات العلمانيين» و«معركة الإسلام وأصول الحكم» و«الإسلام بين التنوير والتزوير»).

لكن.. ها هو الباحث «جان داية» - عضو الحزب السوري القومي الاجتماعي - يعود يدعوى علمة الإسلام إلى سنة ١٨٩٩ م. وليس سنة ١٩٢٥ م. وإلى عبدالرحمن الكواكبي، بدلاً من الشيخ علي عبدالرازق.. وها هو يقول

«ان الكواكبي هو رائد القائلين بعبء فصل الدين عن الدولة. على صعيد الأئمة والكتاب المسلمين فلم يبرز أي كاتب مسلم قبله قال بضرورة الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية. مما يرخي الاستنتاج بأن الكواكبي هو الذي سبق هذه الطريق الطويلة الشاقة. وفي جريدة (المقطم) جاء تعبير الكواكبي عن فصل الدين عن الدولة وإيمانه به أكثر وضوحاً وقوة مما هو عليه في جريدته (الشيء) والاعتدال» - وكتابه - (أم القرى) واطيانع الاستبداد»^(١)

(١) جان داية [الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة] ص ١٧، ١٨٠، ٣٦. طبعة المملكة المتحدة سنة ١٩٨٨ م

■ بل إن «جان داية» يطلعنا في كتابه هذا، الذي خصصه لهذه الدعوى، على حقيقة أكثر إثارة، وهي أن هذه الدعوى - علمية الكواكبي ومن ثم الإسلام - ليست مجرد اجتihad من هذا الباحث - «جان داية» - وإنما هي دعوى الحزب السوري القومي الاجتماعي وزعيمه ومنظره أنطون سعادة (١٩٠٤ - ١٩٤٩م) فهي دعوى الحرب، الذي ينتمى إليه «جان داية» - والذي تمثل العلمنة محور «أيديولوجيته» القومية السورية - وعن هذه الحقيقة يتحدث «جان داية» في كتابه هذا بإقلا عن «الأعمال الكاملة لأنطون سعادة» فيقول

«لقد نظرت أنطون سعادة إلى جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧م) ومحمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) فانتقدتهما منشدًا لأنهما قالا بالدولة الدينية بعد أن رفضا مبدأ فصل الدين عن الدولة».

ثم قارن سعادة بينهما وبين الكواكبي - الذي دعا بالاطمئنان بالخضاء إلى «الوفاق الجنتسى بؤن المذهبي» - فقال - أي - سعادة -

«لا يظن أحد أن جميع مفكري المحدثين هم من نوع الشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغاني فهذان المفكران الرجعيان غير السوريين لا يمكنهما ادعاء احتكار التفكير المحدثي العصري، وقد قلنا إن مفكرًا سوريًا محمديًا هو السيد الفراتي عبد الرحمن الكواكبي لم يذهب حيث إماما الرجعية المذكوران مع أنه أحق بهداية النفوس منهما إذ نظر إلى الحياة الاجتماعية والسياسية من جهة التفكير السوري المشرقى لقد

نظر الكواكبي في مقتضيات الدين والدنيا، فقال فيها هذا القول الفصل الذي تتبناه الحركة السورية القومية بحرفيته.

هكذا تحدث أنطون سعادة عن الكواكبي، باعتباره علمانياً بل وسورياً قومياً مثل سعادة وحرية. ومن ثم فهو تقدمي. وليس رجعياً مثل محمد عبده وجمال الدين الأفغاني.

ولأن «جان داية» قد نذر الكثير من جهده لإثبات هذه الدعوى وجعلها أبرز مشاريعه المحلية، وكتب حولها كتابين «صحافة الكواكبي» و«الإمام الكواكبي: فصل الدين عن الدولة» فضلاً عن العديد من المقالات والمحاضرات، فلا بد من الوقوف بموضوعية وأمانة أمام «الأدلة» التي ساقها لإثبات هذه الدعوى الخطيرة والمثيرة. ولقد استقصينا هذه «الأدلة» فوجدناها سبعة. تعرضها - بالفاظ جان داية - ثم نتبع كل واحد منها بالرد والتفنيد.

■ الدليل الأول قول الكواكبي في طائع الاستعداد - ص ٢٠٨ من الأعمال الكاملة طبعة سنة ١٩٧٥م - «هذه أعم أوستوريا [الضماء] وأمريكا قد هداهما العلم لطرائق شتى وأصول راسخة للاتحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري، فما بالنا لا نفتكر في أن نجمع إحدى تلك الطرائق أو شبهها».

(١) المرجع السابق ص ٣٦، ٣٧ - وجان داية، ينظر عن الأندلس الكاملة لأنطون سعادة [ص ٢٨٨ - طبعة ١٩٤٠ - ١٩٤٢ د.

ونحن عندما نقرأ عبارات الكواكبي هذه في سياقها، نجدها موجهة إلى العرب غير المسلمين، فقبلها يقول «يا قوم، وأعني بكم الخاطفين بالضاد من غير المسلمين». الذين تجمعهم بمواطنيتهم المسلمين روابط الوطنية والقومية. والكواكبي يدعوهم إلى الاتحاد مع المسلمين على أساس هذه الروابط الجامعة. وإلى نزع فتيل الخلاف الديني. وليس في هذه العبارات ما يعنى فصل الدين الإسلامي عن الدولة الجامعة للرعية متعددة الديانات. فالمرجعية الإسلامية لهذه الدولة هي قانون وضعي بالنسبة للفصاري، الذين تأمرهم بسرائرهم أن يدعوا الدولة لقيصر، لأنه ليس في بسرائرهم مرجعية سياسية ولا قانونية لهذه الدولة.

والكواكبي يستطرد في هذا النص فيقول «لأعاجم والأجانب»

«دعونا يا هؤلاء تدبر شأننا، نتفاهم بالفصحاء، وتتراحم بالإخاء، وتتواسى في الضراء، وتتساوى في السراء، دعونا تدبر حياتنا الدنيا وجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط، دعونا نجتمع على كلمة سواء»

وكلام الكواكبي هذا لا شبهة فيه للعلمانية التي تفصل الدين عن الدولة، بل هو التطبيق لموقف الإسلام في إسلامية الدولة. حتى وكأنه يدعو إلى تطبيق دستور دولة النبوة - هي المدينة المنورة - الذي نص على أن - يهود أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر

والأسوة مع العرب المحض من أهل هذه الصحيفه غير مظلومين ولا متناصر عليهم. مع النصيح والنصيحه والعرب يور الإنم»^(١)

وتطبيق لعهد رسول الله ﷺ لنصارى نجران سنة ١٠هـ/ ٦٣١م. الذى أسلمهم فيه على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلواتهم، وكل ما يملكون «على أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين. وعلى المسلمين ما عليهم. حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم»^(٢)

فالدين الإسلامى - وليس العلمانية التى تنحى الدين - هو الذى يجعل رعية الدولة وأمتها وشعبها سواء فى كل حقوق المواطنة. مع جعل الحكم فى الاختلاف الدينى لله وحده يوم الدين. فالمساواة - التى يتحدث عنها الكواكبي - فى حقوق المواطنة، هى ثمرة لإسلامية الدولة، وليس لعلمانياتها.

أما إشارة الكواكبي - فى هذا النداء الموجه إلى العرب غير المسلمين - إلى «الاتحاد الوطنى دور الدينى» فليس المراد منها استبعاد الدين الإسلامى والجامعة الإسلامية لأنه يتحدث إلى النصارى العرب. وإنما المراد دعوتهم إلى الحذر من الوقوع فى شباك «الاتحاد الدينى» مع المستعمرين النصارى، والولاء للأجانب الطامعين فى استعمار بلادهم بحجة أن جامعة المذنبين بالنصرانية توجد بين النصارى العرب وهؤلاء المستعمرين الغربيين.

(١) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد العرفى والحلافة الواقفة] ص ١٧ - ٢١ نسخة

د. محمد حمد الله الحبيب أمادى طبعة القاهرة ١٩٥٦ د

(٢) المصدر السابق ص ١٢٨ - ١٢٩

ويفسر هذا النص وهذا الموقف ملايات واقع ذلك التاريخ. فلقد كانت فرنسا الكاثوليكية - رغم علمانياتها المتوحشة في بلادها - تنصّب نفسها حامية للكاتوليكية العرب - الموارنية - وكانت روسيا القيصريّة الأرثوذكسية تنصّب نفسها حامية للأرثوذكس العرب - وخاصة في الشام - فأراد الكواكبي بهذا النداء الموجه إلى العرب غير المسلمين تحذيرهم من الوقوع في شباك غواية «الاتحاد الديني» بينهم وبين هؤلاء المستعمرين وتسيبهم إلى أن يروابطهم للعوية العربية والصليبية - أي الفرنسية - والوطنية التي تجمعهم مع مواطنيهم المسلمين. هي الروابط الطبيعية الموحدة لهم مع أمتهم العربية. وليس الاتفاق في الدين أو المذهب مع الأجانب المستعمرين. ويؤكد هذا المعنى وهذا التفسير ما جاء في نداء الكواكبي هذا - للعرب غير المسلمين - بعد السطور التي أوردناها منه والتي تقتصر عليها «جان داية» من قوله لهؤلاء العرب النصاري مجذراً من الغواية الاستعمارية باسم الاتحاد في الدين:

«أدعوكم وأخص منكم النجباء، للتبصر والتبصير فيما إليه المنصير ليس مطلق العربي أخف استحقاقاً لأخيه من الغربي»

هذا الغربي قد أصبح مادياً، لا دين له غير الكسب، فما تظاهروا مع بعضنا بالإخاء الديني إلا مضادة وكذبا!

هؤلاء الفرنسيين يطاردون أهل الدين ويعملون على أنهم يتناسونه. بقاء عليه لا تكون دعواهم الدين في الشرق إلا كما يغرد الصياد وراء الأشباك!..^(١)

(١) [الأعمال الكاملة للكواكبي] ص ٢٠٨

فالاتحاد الديني الذي يحذر منه الكواكبي، ليس الجامعة الإسلامية - التي كان من أبرز دعائها - ولا المرجعية الإسلامية للدولة، وإنما هو غواية الاستعمار لتصارى العرب بدعوى الاتحاد الديني والمذهبي بينه وبينهم.

تلك هي الحقيقة التي عقل عنها الباحث «جان دابة» وزعيمه أنطون سعادة، وحزبه السوري القومي الاجتماعي. فكان هذا الاقتراء على الكواكبي بادعاء وفوفه مع فصل الدين الإسلامي عن الدولة وريادته لهذه الدعوى في الفكر الإسلامي الحديث.

■ والدليل الثاني لـ «جان دابة» هو قول الكواكبي عن «جمعية أم القرى»

«إنها لا تتدخل في الشئون السياسية مطلقاً، فيما عدا إرشادات وخطارات بمسائل أصول التعليم وتعليمه».

ولا علاقة لهذا الموقف بفصل الدين عن الدولة، وإنما هو مذهب الإمام محمد عبده ومدرسته الإحيائية: مذهب التركيز على «سياسة التربية» قبل «سياسة الإدارة للدولة» وإصلاح الأصول التي تجدد إسلامية الأمة كطريق لإصلاح الدولة وإسلاميتها. فالدعوة والتربية قبل السياسة - التي هي من الفروع - والأمة قبل الدولة - التي هي مستقلة عن الأمة - وهذا هو المذهب والمنهاج الذي حسنته «جمعية العلماء المسلمين في الجزائر» و«الجمعية المحمدية» في (تونس) أيضاً. فهو إصلاح بالإسلام. ولكن المتميز فيه - عن الأحزاب السياسية - هو نقطة

البدء ومنطقة التركيز. وترتيب الخطوات والأولويات على طريق الإصلاح الإسلامى الشامل.

ولقد نص الكواكبي على هذه الحقيقة - حقيقة البدء بسياسة التربية وصولاً إلى الانتظام السياسى تبعاً للدين - فى «أم القرى» فقال:

«ولا يقولك أن مطمح نظر الجمعية متحصر فى النهضة الدينية فقط، وتوهم أن يأتى الانتظام السياسى تبعاً للدين».

فهو مذهب فى ترتيب أولويات الإصلاح - الإصلاح الدينى - بالتربية والدعوة وإصلاح مناهج الفكر والمؤسسات التى تصوغ العقل وصولاً للإصلاح الإدارى والسياسى الذى يأتى عندئذ مؤسساً على قاعدة اجتماعية إسلامية وليس مذهباً فى فصل الدولة عن الإسلام».

■ والدليل الثالث - جان دابة - هو قول الكواكبي فى «طبائع الاستبداد» ص ٢٢٦ من «الأعمال الكاملة».

«هل يجمع بين سلطتين أو ثلاث فى شخص واحد أم تخصص كل وظيفة من السياسة والدين والتعليم بمن يقوم بها بإتقان؟ ولا إثنان إلا بالاختصاص وفى الاختصاص. كما جاء فى الحكمة القرآنية ﴿فاجعل للرجل من قبله فى حرفة﴾ (الأحرار: ٤). ولذلك لا يجوز الجمع: منعاً لاستفحال السلطة».

وهذا الحديث عن التخصص - فى السياسة والعسكرية والإدارة والفقه والقضاء والتربية إلخ إلخ - هو الذى طبقته

الدولة الإسلامية حتى في عصر النبوة - رغم بساطة الدولة - وليس في التخصص ما يعنى فصل الدين عن الدولة، ولقد كان حذر الكواكبي من الاستبداد الذي يؤدي إليه الجمع بين التخصصات المختلفة في شخص واحد حتى لا تتكرر تجربة الكهانة الكنسية التي احتكرت الدين والدنيا جميعاً في «الأكليروس». ولم يكن حذراً من المرجعية الإسلامية للدولة بحال من الأحوال. فالتخصص ضرورة حياتية وعملية والمرجعية الإسلامية مرعية في جميع التخصصات.

■ والدليل الرابع لـ «جان دابة» هو قول الكواكبي في «طبائع الاستبداد» ص ٢٢٠ من «الأعمال الكاملة»:

«هل يكون للحكومة - ولو القضائية - سلطة وسيطرة على العقائد والضمائر أم تقتصر وظيفتها في حفظ الجامعات الكبرى كالدين والجنسية والسلطة والعادات والآداب العمومية ولا تتدخل الحكومة في أمر الدين ما لم تنتهك حرمة؟ وهل السياسة الإسلامية سياسة دينية أم كان ذلك في مبدأ ظهور الإسلام كالإدارة العرفية عقب الفتح».

وليس في كلام الكواكبي هذا ما يعنى فصل الدين عن الدولة.

فالدين الإسلامي هو الذي يحرم ويمنع السيطرة على العقائد والضمائر، ليس فقط من قبل الدولة، بل وحتى من قبل علماء الدين. وحتى المعصوم عليه السلام لم يجعل الله له - في مسطرة الضمائر

والاعتقاد القلبي - سيطرة ولا سلطانا - سوى سلطان الموعظة -
ولقد قال الله - سبحانه وتعالى - لرسوله ﷺ ﴿فَذَكَرْنَاكَ﴾
مذكراً (٢١) كنت عليهم بمسيطر ﴿[الفاشية: ٢١، ٢٢]

والإمام محمد عبده - الذي يعدّه أنطون سعادة رجعيّاً لأنه
لم يقل بفصل الدين عن الدولة - هو الذي يعلن رفض الإسلام
أية سيطرة بشرية على الصّماير والعقائد فيقول - ان الإسلام
لم يعرف تلك السلطة الدينية التي عرفتها أوربا. فليس في
الإسلام سلطة دينية سوى سلطة الموعظة الحسنة. والدعوة إلى
الخير، والتنفير عن الشر. وهي سلطة خولها الله لكل المسلمين،
أدناهم وأعلاهم. ولا يجوز لصحيح النظر أن يخطط الخليفة
عند المسلمين بما يسميه الإفريخ أثيوكرتيلك، أي سلطان إلهي،
فليس للخليفة - بل ولا للقاضي أو المفتي أو شيخ الإسلام -
أدنى سلطة على العقائد وتحرير الأحكام. وكل سلطة تناولها
واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قدرها الشرع الإسلامي.
فليس في الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجود. بل إن قلب
السلطة الدينية والاتبان عليها من الأساس هو أصل من أجل
أصول الإسلام^(١)

فالإسلام قد جاء ثورة على السلطة الدينية. وتحريراً للصّماير
والعقائد. والسلطة المدنية التي قررّها إنما هي بقرار الشرع،
وليست من العلمانية الثائرة ضد الشرع والدين!

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٣ ص ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٨٦، ٢٨٨ - دراسة
وتحقيق: د. محمد عمارة - طبعة بيروت - ١٩٧٢ م.

ولقد جمع الإسلام بين القوة على السلطان البشري على القلوب والضمائر والعقائد وبين تقرير الشرعية الإسلامية للدولة المدنية - أي رفض علمانية الدولة - ومحمد عبده - الذي تحدث عن رفض الإسلام أي سلطان بشري على العقائد والضمائر وتحرير الأحكام - هو الذي تحدث عن إسلامية الدولة «لأن الإسلام دين وشرع فهو قد وضع حدوداً ورسم حقوقاً، ولا تكتمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضي بالحق، وصور نظام الجماعة والإسلام لم يدع ما يقيصر لقيصر بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ما له، ويأخذ على يده في عمله فكان الإسلام كمالاً للشخص، والفة في البيت ونظاماً للملك امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم تدخل فيه».

■ وحديث الكواكبي - هذا الذي استدلل به «جان داية» - عن أن من وظيفة الدولة - حفظ جامعة الدين - ومنع انتهاك حرمة - دليل على اتحيازه لإسلامية الدولة - وليس لعلمانيته - وشاهد على أن من وظائف الدولة - لإسلاميتها - عند الكواكبي - حراسة الدين، وحفظ الجامعة الدينية - وهي الوظيفة التي نص عليها تعريف علماء الإسلام للخلافة الإسلامية - حراسة الدين - وسياسة الدنيا بهذا الدين -

■ والدليل الخامس لـ «جان داية» - هو قول الكواكبي في «أم القرى» - يعرض نقده للدولة العثمانية

(٨) المصدر السابق ص ٢٤٥، ٢٢٦، ٢٨٧

«ولما وضع قانون تشكيل الولايات لم يرض المتعممون حتى جعلوا فيه فاضى المسلمين. وكذلك مفتى المؤمنين في كل بلد. عضوين في مجلس الإدارة. يحكمان بأشياء مما يصادم الشرع، كالربا والضريبة على الخمر والرسوم العرفية وغيرها مما كان الألبق والأنسب بالإسلامية أن يبقى العلماء بعبدين عنه. كما أن القسيس - بل الشماس - لا يحضر مجلسا يعقد فيه زواج أو تفريق مرتبان، ولا يشهد في صك دين داخله الربا فضلا عن أن يفضى أو يحضى بصفة رسمية كهنوتية أمثال ذلك من الأعمال التي تصادم دين النصرانية».

وقول الكواكبي هذا شاهد ضد «جان داية» لا شاهد معه. فهو لا يعيب على علماء الدولة العثمانية الاشتراك في مجالس الإدارة والأحكام وإنما يعيب عليهم الحكم «بأشياء كثيرة مما يصادم الشرع» الإسلامي. فهو موقف ضد العلمنة والعلمانية وليس معها ودعوة إلى أن تكون القوانين في الدولة شرعية، لا مصادمة للشرع. وحض على عدم مخالفة العلماء ودوائر الحكم والإدارة «الإسلامية» بتعبير الكواكبي. أي دعوة لإسلامية الدولة وإسلامية القضاء، والإدارة، والقانون.

■ والدليل السادس لـ «جان داية» هو قول الكواكبي في «أم القرى»:

«لقد زعم كثير من حكماء تلك الأمم - الأوروبية - أنهم ما أخذوا في الترقى إلا بعد عزلهم شئون الدين عن شئون الحياة

وجعلهم الدين أمراً وجدانياً محضاً لا علاقة له بشئون الحياة الجارية على نواميس الطبيعة.

والخطأ الغريب لـ «جان داية» أنه جعل «الزعم» الذي رُغمه فلاسفة العلمانية الأوروبية - والذي أوردته الكواكبي على سبيل الحكاية باعتباره «زعمًا» - جعله «جان داية» رأى الكواكبي في أن الدين مجرد أمر وجداني لا علاقة له بشئون الحياة!!

وهو خطأ كبير. وغريب من هذا الباحث. جعل «استدلاله» هذا «زعمًا» لا علاقة له بحقيقة فكر الكواكبي حول علاقة الدين بالدولة!

■ أما الدليل السابع لـ «جان داية» وهو أهم الأدلة عنده على علمانية الكواكبي - فهو ما كتبه كاتب بتوقيع «سلم حر الأفكار» في جريدة «المقطم» - أغسطس ١٨٩٩م - حول الجامعة الإسلامية وفصل الدين عن الدولة. وهي مقالات ادعى «جان داية» أن كاتبها هو عبدالرحمن الكواكبي.

ويكفي لإثبات أن ما جاء في هذه المقالات هو «الدليل العمدة» لـ «جان داية» على علمانية الكواكبي. ومن ثم علامة الإسلام. أنه قد خصص لها في كتابه: «الإمام الكواكبي» فصل الدين عن الدولة» نحو ١٠٠ صفحة. في كتاب مجموع صفحاته ١٥٨ صفحة! أي نحو ثلثي الكتاب!

ولقد وقفنا أمام هذه المقالات وقفات فاحصة ومتأنية. استخدمنا فيها المنهج العلمي في فقه النصوص ونقدنا. فثبت

لنا ثبوتاً يقينياً أن هذه المقالات لا علاقة لها بالكواكبي بل أن كاتبها - في أغلب الظن - ليس مسلماً، رغم توقيعها بعبارة «مسلم حر الأفكار»!

ولست أدري كيف غفل ياحك جاد مثل «جان داية» عن أن يقرأ في صلب هذه المقالات العبارات التي تفصح - بأبلغ عبارة - عن أن كاتبها لا يمكن أن يكون هو المصلح الإسلامي العظيم عبدالرحمن الكواكبي!

ومن الأدلة على هذه الحقيقة التي غفل عنها «جان داية»

١ - ما جاء في رد الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٣ - ١٣٥٤ هـ - ١٨٦٥ - ١٩٢٥ م) على هذا «مسلم حر الأفكار» من التحذير من الاغترار «بكلام عارق غادر يهتف نفسه بأنه (مسلم حر الأفكار) وما جاءت حريته إلا من رق الكفار» ص ١٢٨ من كتاب «جان داية».

٢ - فلما رد «مسلم حر الأفكار» على الشيخ رشيد رضا جاء في رده - ص ١٤١ من كتاب جان داية - تعليقاً على عبارة «وما جاءت حريته إلا من رق الكفار» التساؤل: «فمن هم الكفار الذين يعنيهم الأوروبيون الذين يعيبنى على الدرس في مدارسهم».

فلقد كشفت هذه العبارة اعتراف هذا «مسلم حر الأفكار» بأنه واحد من المثقفين اللبنانيين الذين تعلموا ودرسوا في

مدارس الإسرائيليات التفسيرية. وفي هذا دليل قاطع على أنه لا يمكن أن يكون هو الكواكبي الذي درس في المدرسة الكواكبية الإسلامية بحلب.

٣ - ولقد عاد الشيخ رشيد رضا في رده على هذا الرد - ص ١٤٥ من كتاب «جان داية» - فأشار إلى حقيقة هذا الاكتشاف الذي غفل عنه - أيضا - جان داية. وذلك عندما قال عن هذا «مسلم حر الأفكار» «إن كتابته تشيد عليه إحدى الغميرتين

- عدم فهم الإسلام.

- واعتقاد أن تركه سعادة للأنام.

وهو مع ذلك، يقى التهمة عن نفسه بالاعتزاز بالأوربيين والتبجح بالانتماء اليهم. والأخذ بتعاليمهم وانكار إطلاق لفظ الكفار عليهم».

ولا يمكن لقارئ - فضلا عن باحث مثل جان داية - أن يقول إن أوصاف «الاعتزاز بالأوربيين والتبجح بالانتماء اليهم والأخذ بتعاليمهم وانكار إطلاق لفظ الكفار عليهم» يمكن أن تجعل هذا الكاتب مسلما. فضلا عن أن يكون هو الشيخ عبد الرحمن الكواكبي أحد أئمة الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث!!

٤ - ثم يعود الشيخ رشيد رضا - في هذا الرد على الرد - ص ١٤٦، ١٤٧ من كتاب جان داية - ليعيد الحديث عن هذا الاكتشاف

- الذي جسم القضية - اكتشاف أن المسلم حر الأفكار - هذا هو واحد من خريجي مدارس الإرساليات التنصيرية في لبنان فيقول الشيخ رشيد - إنني ما عيته على الدرس في مدارس الأوربيين - ثم يختم الرد موجها إليه القول « فالزم شأنك - مكنتنا بعلومك الأوربية، والسلام على من اتبع الهدى »!

فكانت مقالات «المقطم» - الداعية إلى فصل الدين عن الدولة - هو خريج إحدى مدارس الإرساليات التنصيرية في لبنان - وليس الشيخ عبدالرحمن الكواكبي.

والشاهد الصادق على هذه الحقيقة هو نصوص المقالات التي نشرتها «المقطم» والتي غفل الباحث «جان داية» عن الوقوف أمامها!!

ولست أدري كيف حدث منه ذلك - اللهم إلا أن تكون شهوة الانتصار لدعوى زعيمه ومثله الأعلى «أنطون سعادة» علمنة الكواكبي هي التي غلبت على ملكة الباحث المدقق فيه:

وقديما قالوا إن الحب يعشى ويصم - فنعود بالله من حب كهذا - خاصة في القضايا الخلافية الشائكة - مثل دعوى علمانية هذا العلم البارز من أعلام الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث.

٥ - ثم إن الدين كتبوا - في (المقطم) - داعين إلى فصل الدين عن الدولة - فبيل نشر مقالات هذا «المسلم حر الأفكار» - كانوا

جميعاً كتاباً مسيحيين، حنا الطرابلسي - «المقطم في ١٢،
 ١٧» أغسطس سنة ١٨٩٩م - وميتيل حكيم - «المقطم في ١٥
 أغسطس ١٨٩٩م» - ولم يكتب كاتب مسلم واحد - بأسعة
 الصريح - حول هذا الموضوع في ذلك التاريخ ولم يعرف في
 ساحة الفكر الإسلامي من الكتاب المسلمين من كان يتبنى
 هذا الاتجاه - فصل الدين عن الدولة - في تلك المرحلة من
 تاريخ فكرنا الإسلامي

فهل كان هذا «المسلم حر الأفكار» كاتباً مسيحياً تخفى تحت
 هذا الوصف الكاذب المستعار؟

إن مقال هذا الـ «مسلم حر الأفكار» في «المقطم» - ٣ أغسطس
 سنة ١٨٩٩م - يشي بأنه كاتب مسيحي، وليس مسلماً. فهو
 يتحدث عن «الدعوات الدينية المسكونية» - كتاب «جان داية»
 ص ١٢٠ - وتعبير «المسكونية» هذا تعبير مسيحي ومصطلح
 كنسي لا يستخدمه المفكرون المسلمون

٦ - ثم إن هذا الكاتب يتهم دعاة الجامعة الإسلامية - التي كان
 الكواكبي من أعلامها - بالثبم التي اجتهد الكواكبي كثيراً على
 دفعها عن الإسلام والمسلمين.. يتهم هذا الـ «المسلم حر
 الأفكار» دعاة الجامعة الإسلامية بالثبم يرون «أن الخطر
 لا يزول عن الإسلام إلا بتعريق شمل النصارى.. وإن عز الإسلام
 لا يكون إلا بزل النصارى» - كتاب «جان داية» [الإمام
 الكواكبي.. فصل الدين عن الدولة] ص ١٢١ - وهذه دعاوى

واتهامات لا يقول بها إلا المسيحيون الذين تعلموا التعصب
ضد الإسلام والمسلمين في مدارس الإرساليات التبصيرية
التي اعترف هذا الـ «مسلم حر الأفكار» بأنه قد تربي وتعلم
فيها.. ولا يمكن لعاقِل أن يتصور صدور هذه الاتهامات
للمسلمين - «تمزيق شمل النصارى»... و«ذل النصارى» - من
المصلح الإسلامى السيد عبدالرحمن الكواكبي

الإسلام والعلمانية

وإذا كانت دعوى «علمانية الكواكبي» قد سقطت «أرلنها السريعة» هذا السقوط المدوي» - على هذا النحو الذي أوردناه - فجدير بالذكر أن الشيخ محمد رشيد رضا قد انتهز فرصة الرد على هذا «مسلم حر الأفكار» لينفي عن علماء الإسلام القول بالعلمنة. ول يؤكد أن هذه الدعوى قد وقعت - حتى ذلك التاريخ عند الكُتّاب النصارى - الذين أرادوا إزاحة الإسلام عن أن يكون المرجعية للدولة التي يعيشون فيها. ولما لم يكن لديهم بديل نصراني للدولة والإدارة والسياسة والقانون والاجتماع - ولأنهم أقلية بين الرعية التي تدّين أغليبتها بالإسلام - فلقد أرادوا إزاحة الإسلام بالعلمانية الغربية، التي تعلموها في مدارس إرساليات التنصير.. والتي تخرجوا منها «خصيًا متفانيًا في خدمة فرنسا وحضارتها» على حد تعبير أحد القناصل الفرنسيين ببيروت في ذلك التاريخ!!

استهر الشيخ رشيد رضا تلك الفرصة، ليؤكد على هذه الحقيقة.. وعلى أن العلمانية لا يمكن أن تكون مقبولة في إطار الإسلام والمسلمين.. فقال:

«إن «الأهرام» و«المقطم» متفقتان على أن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية باسم الدين مُضِرّة، وغير موصلة إلى الغاية، وأنه لا سبيل إلى ترقّي الأمة الإسلامية إلا باتباع خطوات أوربا، كما فعلت اليابان».

و«المؤيد» رد عليهما قولهما الأول - ولم يبد رأياً جديداً، إلا أنه وافق على أن مسلك الكتاب المسلمين في الدعوة الدينية مقيد، كما أن الأخذ بالفنون والصنائع الأوروبية مقيد مع ذلك.

ولكن، قد ظهر في «المقطم» قول جديد في مقالة نسبت إلى «مسلم حر الأفكار» لم يتابع به فائله مسلماً، ولن يتابعه عليه مسلم، لأنه ناسف لبقاء الدين الإسلامي، ومفوض لعمود بنائه، وهو زعم أن الدين والدولة أمران متباينان يجب أن ينفصل أحدهما عن الآخر، ولقد وجد للإسلام أعداء اجتهدوا في كل عصر بمحوه، أو إضعافه، منهم من حاول إفساد العقائد بالتأويل، ومنهم من وضع الأحاديث الكاذبة، ومنهم من سهل للملوك طريق الاستبداد، ومنهم ومنهم، ولكن مجموع عفاستهم ومضراتهم لن تبلغ بعض ما يرمى إليه هذا القول الخبيث الذي لم يخطر في بال إبليس، فهو أبلغ قول يشير إلى احكم رأى لمحو السلطة الإسلامية من لوح الوجود، فائل الله فائله، ولا كفر فيمن يدعون الإسلام من أمثاله - [كتاب بيان داية الإمام الكواكبي: فصل الدين عن الدولة] ص ١٣١، ١٣٢.

هكذا أعلن الشيخ رشيد رضا أن الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة قد تفوقت على كل دعاوى المفسدين للإسلام من الأعداء عبر التاريخ، وأنها قد تفوقت على أحلام إبليس.

ثم مضى الشيخ رشيد ليؤكد على رفض الإسلام - بحكم طبيعته كمنهاج شامل - للعلمانية، فقال: «لقد عرف علماء المسلمين الدين بأنه وضع إلهي سائق لدوى العقول باختيارهم

إلى الصلاح في الحال والفلاح في المال وإن شئت قلت: إلى
سعادتهم الدنيوية والأخروية».

وقواعده عندهم ثلاث:

١ - تصحيح العقائد

٢ - تهذيب الأخلاق

٣ - إحسان الأعمال

والأعمال قسمان: عبادات، ومعاملات، ومن الثاني الأحكام
بأنواعها - قضائية ومدنية وسياسية وحربية.

أما الدين عند النصارى، فهو - كما في دائرة المعارف -
«عبارة عن مجموع التواميس الضابطة لنسبة الإنسان إلى الله
أو يبين صفات تلك النسبة»، وهو - كما ترى - لا علاقة له
بالأمور الدنيوية ولا بالأحكام والسلطة، ومن المشهور أن الديانة
النصرانية مبنية على الخضوع لأية سلطة حكمت أصحابها، لما
في الإنجيل من أن سلطة الملوك إنما هي على الأجسام الفانية،
وأن سلطة الدين على الأرواح فقط، فيجب على كل متبع لهذا
الدين أن يدين لكل سلطة ويذعن لكل تريعة حكمته، بخلاف
الدين الإسلامي فإنه مبنى على السلطة والغلب

إن الدين الإسلامي جامع لمصالح المعاش والمعاد ومبني
على أساس السلطتين الزمنية والروحية. وإن الديانة النصرانية
على خلاف ذلك. وإن الخليفة هو رئيس المسلمين القائم على
مصالحهم الدينية والدنيوية وإن كل حكومة تخرج عن طاعته

الشرعية فهي منحرفة عن صراط الإسلام، وإن القول بفصل الحكومة والدولة عن الدين هو قول يوجب محو السلطة الإسلامية من الكون وتسخ الشريعة الإسلامية من الوجود، وخضوع المسلمين إلى من ليس على صراط دينهم ممن يسمونهم فاسقين وظالمين وكافرين. قال القرآن العزيز الذي هو أساس الدين بقرع دأبنا أذانهم بل يناديهم من أعماق قلوبهم فأنلا برسائلنا عرسي مبين. ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (السجدة ١٤) ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (السجدة ١٥) ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (السجدة ١٦)

ونحن نقول للذين يدعوننا إلى فصل الدين عن الدولة والتفريق بين السلطة والخلافة لأجل تأييد الجامعة الإسلامية إن كنتم تدعوننا هذه الدعوة جاهلين معنى هذه الألفاظ عندنا فها نحن أولاء قد بيناها لكم فارجعوا عن دعوتكم، فقد علمتم أن قياس الإسلام على النصرانية قياس مع الفارق فإن فصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية هو أصل النصرانية. وقد كان رؤساء الدين تعدوا الحدود وتسلقوا عروش السلاطين والملوك مخالفين صاحب الدين الذي

قد جاء لا سيف ولا رمح ولا

فارس ولا شيء يبيع بدرهم

يأوى المغارة مثل راعي الضأن را

على الممالك فى السرير الأعظم

فلا بدع إذا ترقى الدين بانصراف رؤسائه إلى خدمته وتركهم
الاشتغال بما ليس منه فى شيء. ونحن والنصارى فى هذا الأمر
على طرفى نقيض. فإنا إذا تلونا سلوكهم فيه نكون قد تركنا
نصف ديننا الذى هو السياج الخافض للنصف الباقي

كلا، إن الدين كله يكون بهذا العمل عرضة للاضمحلال ومهددا
بالزوال. لا حرم أن ما تدعوننا إليه هو أقرب طريق لإعدام
الجامعة الإسلامية. فكيف جعلتموه طريق إيجادها وهو أقوى
علل شقانها، فأنى تقنعوننا بأنه علة إسعادها؟

ويعد أن فصل الشيخ رشيد رضا هذا الفصل الحاسم فى
القضية. فميز بين الإسلام والنصرانية فى الموقف من السياسة
والعلاقة بالدولة. فهما فى ذلك على طرفى نقيض. ومن ثم، فإن
العلمانية إذا كانت طبيعية فى المجتمعات النصرانية، فإنها
الهادمة لجماع الدين فى المجتمعات الإسلامية.

بعد هذا الفصل.. عماد الشيخ رشيد إلى هذا الـ «مسلم حر
الأفكار» الداعى إلى فصل الدين عن الدولة فتكك فى صدق
انتسابه إلى الإسلام.. وقال:

«علينا ألا نغتر بكلام مارق وغادر. يصف نفسه بأنه «مسلم
حر الأفكار». وما جاءتته حريته إلا من رق الكفار فإن كان اتخذ
لقب المسلم ذريعة لهدم منار التريعة، فكأين من منتسب مثله

للإسلام ينتهك حرمانه بالفعل لا بالكلام، ويساعد الأجانب على
نقض أساسه، وإطفاء نيراسه، متيجحا بأنه من الأحرار
المتمدنين، البراء من لؤة التعصب للدين.

ربما كان الحامل لبعض الكتاب المسيحيين على اقتراح ما
ذكر هو اعتقادهم بأن زوال السلطة الشرعية الإسلامية هو الذي
يساوى بين طائفاتهم وبين المسلمين، ويخدم تيران الغلو في
التعصب، فيتفقون على إعلاء شأن الوطن، ويخدم كل دينه من
الوجهة الروحية التي لا سار فيها للثامر والتفاخر ويسهل
علينا أن نبين لهم خطأهم في اعتقادهم هذا فنقول

١- إن بناء الشريعة الإسلامية قام على قاعدة العدالة والمساواة
بين المسلمين وغيرهم في الأحكام والحقوق المعبر عنها
بهذه الجملة التي يتناقلها الإسلام خلفا عن سلف، وهي
«لهم ما لنا وعليهم ما علينا» وقد دللنا التاريخ على أن
الحكومات الإسلامية كانت تراعى هذه القاعدة بحسب
تمسكها بالدين قوة وضعفاً ومن قابل بين مساواة أمير
المؤمنين عمر بن الخطاب الإمام علياً صهر النبي وربيه
وأبن عمه برجل من آحاد اليهود في المحاكمة، وانتقاد علي
عليه بقوله له «يا أبا الحسن»، وعنه التكنية إخلالاً بالمساواة؛
لما فيها من التعظيم وبين ما هو جار اليوم في فرنسا من
التحامل على «الديفوس» وهو من أكابر عظماء اليهود، حتى
إنهم حاولوا قتل وكيله الذي يحامى عنه، وهم أصحاب العلم
الذي ينطق بالحرية والعدالة والمساواة، يظهر له الفرق بين

المسلمين في بدايتهم والأوربيين في نهاية مدنيّتهم،
فالشريعة في نفسها عادلة، ولا يضر المسيحيين ان
مواطنيهم المسلمين يعتقدون أنها سماوية. بل هو ينفعهم
وهم لا فرق عندهم بين الشرائع إن دينهم يوجب عليهم
اتباع أية شريعة حكموا بها

٢ - إن الترقى الدينى والمدنى الذى نقصده من إحياء «الجامعة
الإسلامية» يتوقف على التهذيب وقيام الأفراد بما عليهم من
الحقوق والواجبات لمن يعيشون معهم. وهذا القول لا يخالف
فيه أحد

ومعلوم أن المسلمين لا يعتقدون بحق ولا واجب إلا إذا كان
سبباً في شريعتهم وأخوذاً من أصول دينهم، فإذا فصل بين
الدين والدولة كان جميع ما تكلفهم به الدولة من الحقوق
والواجبات غير واجب الاتباع في اعتقادهم، فإذا أخذوا به في
العلانية لا يأخذون به في السر، ولا يتم تهذيب الأمة ما لم يكن
الوازع لها عن الشر والحامل لها على الخير ثابتاً في نفسها مقررّاً
في اعتقادها، فخير للمسيحيين أن يحكم المسلمون بشريعة
ودولة توجب عليهم احترامهم والقيام بحقوقهم سراً وجهراً،
وبدون هذا يتضرر المسيحيون ولا يترقى المسلمون بل يتدانون
ويهمطون، كما علم بالاختبار والملاحظة، فقد أنبأ التاريخ أن
مبدأ الخلل والضعف الذى ألم بنا كان من إهمال وظائف الخلافة
والخروج بها عن معناها الذى هو حراسة الدين وسياسة الدنيا
ولن يعود للإسلام مجده إلا بإحياء منصب الخلافة واتفاق

المسلمين على إمام واحد يعتقدون وجوب الخضوع له سرّاً
وجهرًا، ولا إمام اليوم للمسلمين بهذا المعنى إلا القرآن الكريم،
فيجب على من يهمة ترقية شؤونهم أن يدعوهم به إلى العلم
والعمل، ونقض عمار الجهل والكسل، والقيام بمصالح المعاش
والمعاد، على ما تقتضيه سنة الترقى والإسعاد، فهو إمام كل
إمام، وكما كان المبدأ في ترفيهم كذلك يكون الختام»^(١)

هكذا سقطت جميع «الأدلة» التي حاول بها جان داية -
وحزبه السوري القومي - علمية الكواكبي، وهكذا رأينا كيف
كانت مقالات «المقطم» فرصة لكتف الشيخ رشيد رضا ريف
انتساب صاحبها إلى الإسلام، فضلاً عن أن يكون هو المصلح
الإسلامي العظيم الشيخ عبدالرحمن الكواكبي.

(١) جان داية [الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة] ص ١٣٩، ١٣٦، ١٣٥، ١٣٩ - ١٣٩ -
وهو نقل عن [المدار]، انظر في [المعارف] رشيد رضا «تحرير الكلم عن مواضع»
رد على مسلم عن الأفتاء - السلسلة الثمانية - عدد ٢٤ ص ٢٥٦ - ٢٩١ - ٢٦ وجميع
الطائفة سنة ١٢١٧ هـ - ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٩ م.

◆◆ الكواكبي والفصل بين السلطتين ◆◆

لكن إذا كانت دعوى الحزب السوري القومي الاجتماعي - وبخاصته جان داية - علمنة الكواكبي، قد سقطت وذهبت إلى غير رجعة بعد أن انهارت - في هذه الدراسة - «أدلتها» السبعة - فما هي حقيقة - الخلاف بين الشيخ محمد رشيد رضا وبين الكواكبي حول علاقة السلطة الدينية بالسلطة السياسية؟ - وهو الخلاف الذي أشار إليه الشيخ رشيد في رثائه للكواكبي بمجلة «المسار» - فقال: «وقد كنا معه على وفاق في أكثر مسائل الإصلاح - حتى إن صاحب الدولة مختار باشا العارفي (١٨٣٢ - ١٨٩٩م) اتهمنا بتأليف الكتاب «أم القرى» - عندما أطلع عليه - وربما يشير إلى المسائل التي خالفنا الفقيه «الكواكبي» فيها - في هامش الكتاب عند طبعه - وأهمها الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية»^(١)

فما هو هذا الفصل الذي قال به الكواكبي بين السلطتين الدينية والسياسية؟ وهل هو العلمانية التي تفصل الدين عن الدولة؟

■ لقد كان الكواكبي ناقدًا نقدًا شديداً - بل وحاداً - للأتراك العثمانيين. وكان منحازاً الانحياز كله إلى العرب فهم - عنده - أقدم الأمم اتباعاً لأصول تساوي الحقوق وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية. وأعز في الأمم في أصول التنوير في الشؤون العمومية. وأهدى الأمم لأصول المعيشة الاشتراكية. ومن

(١) [البنار] المجلد الخامس - الجزء التاسع من ٢٧٩ - عدد ربيع الثاني سنة ١٣٢٠هـ - ٧ مايو سنة ١٩٠٢م.

أحرص الأمم على احترام العهود عزةً واحترام الذمة إنسانية واحترام الجوار شهامة. وبذل المعروف مروءة. وأنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين وقُدوة للمسلمين. حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداءً. فلا يأنفون عن اتباعهم أخيراً. ولذلك قررت «جمعية أم القرى» أن تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية. بل الكلمة الشرقية.

■ وكان الكواكبي - كذلك - حريصاً على بقاء السلطنة العثمانية دولة حاسمة لكثير من بقاع العالم الإسلامي. كما كان داعية إلى تحديثها وتقويتها وإصلاح أعرجاتها لتواجه «طامع الغرب الاستعماري في ولاياتها.

■ وتوفيقاً بين موقفه الناقد للأتراك وبين استحيازه الشديد للعرب.. جاء في ملحق مذكرات «جمعية أم القرى» الاقتراح التنظيمي الذي يبقى على الدولة العثمانية دولة إسلامية المرجعية والفقه والقانون. ويفصل الخلافة - في ذات الوقت - عن الأتراك. ويعيدها إلى العرب - في مكة - سلطة سياسية على الحجاز، وسلطة روحية على سائر المسلمين.

ولقد جاء في هذا «الملحق» من هذا الاقتراح التنظيمي الذي صاغه - في الحقيقة - أحد الأمراء الذين أطلعوا على فكرة الكواكبي - ولم يصفه الكواكبي نفسه - جاء فيه اقتراح:

أ- إقامة خليفة عربي قرشي مستجمع للشرائط في مكة

(١) [الأعمال الكاملة] ص ٣٥٧، ٣٥٨ طبع سنة ١٩٧٥م

٢- يكون حكم الخليفة، سياسيًا، مقصورًا على الخطة الحجازية،
ومربوطًا بشورى خاصة حجازية.

٣- الخليفة ينتخب عنه من يرأس هيئة شورى عامة إسلامية

٤- تتشكل هيئة الشورى العامة من نحو مائة عضو منتخبين
مفدوين من قبل جميع السلطنات والإمارات الإسلامية، وتكون
وظائفها منحصرة في شؤون السياسة العامة الدينية فقط.

٥- تجتمع الشورى العامة مرة شهريًا في كل سنة قبل موسم
الحج

٦- ٧- ٨-

٩- ترتبطبيعة الخليفة بشروط مخصوصة ملائمة للمشرع.
وبناء على أنه إذا تعدى شرطًا منها ترتفع بيعته، وفي كل
ثلاث سنين يعاد تجديد البيعة

١٠- انتخاب الخليفة يكون مفوضًا بهيئة الشورى العامة

١١- ١٢- ١٣- ١٤- ١٥- ١٦- ١٧-

١٨-

أما وظائف الشورى العامة فبقنصى ألا تخرج عن تمحيص
أمهات المسائل الدينية التي لها شغل مهم في سياسة الأمة،
وآثار قوى في أخلاقها ونشاطها وذلك مثل فتح باب النظر
والاجتهاد تمحيصًا للشريعة، ونسبًا للدين إلخ إلخ

ويمثل هذا الترتيب حل مشكلة الخلافة، ويتسهل عقد اتحاد
إسلامي تضامني تعاوني فيترك الترك الخلافة لأهلها -

[العرب] ويحتفظون ببقية سلطنتهم، ويكتفون بشرف خدمة نفس الحرمين.. وبذلك يتم تجديد عز الإسلام...»^(١)

هذا هو الاقتراح التنظيمي الذي جاء في ملحق «مذكرات» جمعية أم القرى - وهو في الأساس من إنشاء أحد الأمراء والكواكبي في تنبيهه تأكيد على ضرورة إعادة الخلافة إلى العرب - خلافة إسلامية شرعية - وبقاء الدولة العثمانية سلطنة كما هي، لإقامة الجامعة الإسلامية - «عقد اتحاد إسلامي تضامني تعاوني» و « تجديد عز الإسلام ».

ولقد كانت هذه هي نقطة الخلاف بين الشيخ رشيد رضا وبين الكواكبي فصل الخلافة الإسلامية - العربية - عن السلطنة العثمانية، ولا علاقة لنقطة الخلاف هذه بالعلمانية، وقصص الدين عن الدولة - التي ادعاهما الباحث «جان دايه» وأنطون سعادة والحزب السوري القومي الاجتماعي - فهدف الكواكبي من وراء هذا التنظيم

١ - إحياء الخلافة الإسلامية - التي طوى العثمانيون صفحاتها وأعادتها إلى العرب.

٢ - إقامة الجامعة الإسلامية، بعقد اتحاد إسلامي تضامني تعاوني بين الدول والسلطنات الإسلامية

٣ - تجديد عز الإسلام.

فأين هي العلمانية - يا ترى - في هذه الأهداف^(٢)

(١) المصدر السابق ص ٣٦٤ - ٣٦٧

الرفض الكواكبي للعلمانية

وإذا كان لابد - في ختام هذه الدراسة - من إبراز بعض «النصوص الكواكبية» التي تشهد على انحياز الرجل إلى إسلامية الدولة - ومن ثم تنفي عنه أية شبهة من شبهات العلمانية - فيكفي أن نعلم:

١ - أن كتاب الكواكبي «أم القرى» موضوع كله لغرض «النهضة الإسلامية» إذ هو عبارة عن «صبط مفاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الإسلامية... والجمعية التي أقامها هذا المؤتمر كان مقصدها إنهاض الأمة الإسلامية - وليس فقط العربية - جمعية - إذا نادى مؤدنها - حى على الفلاح - فى رأس الرجاء. يبلغ أقصى الصبر صداد» [الأعمال الكاملة ص ٢٤٢]

ومن شروط عضوية «جمعية تعليم الموحدين» التي أقامها مؤتمر «أم القرى» لإنهاض الأمة - الشرط الثانى، بعد سلامة الجواس - الإسلامية، من أى مذهب كان من مذاهب أهل القبلة - والشرط الثالث هو - العدالة - بحيث يكون العضو غير مجاهر بمعصية سرعية اجتماعية [الأعمال الكاملة ص ٣٣٧]

كما أن لهذه الجمعية - الشى مركزها مكة - فروعاً وشعباً تغطى العالم الإسلامى، «القسطنطينية»، و«مصر» و«الكتنة».

و«دلهي»، و«سنغافورة» و«تونس» و«مراكش»، وغيرها من
المواقع المناسبة [الأعمال الكاملة ص ٣٣٩]

كما تخصص الجمعية منشوراتها وإعلاناتها أربع جرائد من
أشهر الجرائد الإسلامية السياسية:

١ - عربية في مصر .

٢ - تركية في القسطنطينية .

٣ - فارسية في طهران .

٤ - أوردية في كلكتة . [الأعمال الكاملة ص ٣٤٨]

كما أن الجمعية - في ختام اجتماعاتها - تسأل الله تعالى
أن يوفق ملوك المسلمين وأمرأئهم للتعصب في الدين، وللحزم
والعزم عساهم يحفظون عزهم وسلطانهم إلى أن يرث الله الأرض
ومن عليها، [الأعمال الكاملة ص ٣٥٨].

فأين من ذلك هذه العلمانية التي يزعمون»

٢ - إن الكواكبي - في العديد من صفحات آثاره الفكرية - يتحدث
عن المنهج الإسلامي في الإصلاح وعن نظام الحكم -
ويسميه «الإسلامية»، ويقول: «إن هذه الإسلامية هي التي
قدمت الحل لمعضلة الاستبداد العالي وذلك عندما أحدث
الإسلام سنة الاشتراك على أتم نظام، وعندما أسست
الإسلامية حكومة أرستقراطية المبنى، ديمقراطية الإدارة
فوضعت للبشر قانوناً مؤسساً على قاعدة أن المال هو قيمة

الأعمال. ولا يجتمع في يد الأغنياء إلا بأنواع من الغلبة والخذاع، وعندما قررت - هذه الإسلامية - أن تكون الأراضي والأموال الثابتة وآلاف المعامل الصناعية الكبيرة مشتركة الشيوع بين عامة الأمة، وأن الأعمال والثروات تكون موزعة بوجود متقاربة بين الجميع، وأن الحكومة تضع قوانين لكافة الشئون حتى الجزئيات، وتقوم بتنفيذها وهذه الأصول، مع بعض التعديل، قررتها الإسلامية ديناً. وقررت الإسلامية ترك الأراضي الزراعية ملكاً لعامة الأمة، يستنبطها ويستمتع بخيراتها العاملون فيها بأنفسهم فقط. كما جاءت الإسلامية بقواعد شرعية كلية تصلح للإحاطة بأحكام كافة الشئون حتى الجزئية الشخصية، وأنطقت تنفيذها بالحكومة» [الأعمال الكاملة ص ١٧١، ١٧٢]

فهو - كمصلح إسلامي - يلتصق أصول الإصلاح وفلسافته وقوانينه من الإسلامية، ومن التجارب التاريخية لتطبيقات الإسلامية في الاجتماع الإسلامي.

وفي موطن آخر من مواطن حديث الكواكبي عن نماذج الإصلاح، يتحدث عن الإسلامية، التي أقامت «حكومة قضت بالتساوي بين الحاكمين وبين فقراء الأمة في نعيم الحياة وشغلها، فأحدثوا في المسلمين عواطف أخوة وروابط شينة اجتماعية اشتراكية لا تكاد توجد بين أشقاء يعيشون بإعالة أب واحد وفي حضانة أم واحدة. وهذا هو الطراز السامي النبوي

الذي تناقض عبر التاريخ والذي يجب أن تستعوضه الأمة بطراز سياسي شوري» [الأعمال الكاملة ص ١٤٤، ١٤٥].

فالمثال الإسلامي هو الحاضر - دائماً - في فكر الكواكبي، عندما يبحث عن نموذج الإصلاح الذي يسعى إليه

٣ - وفي محاربة الاستبداد، يلتفت الكواكبي الأنظار إلى المصدر القرآني: «فهذا القرآن الكريم مشحون بتعاليم إمامة الاستبداد وإحياء العدل والتساوي، حتى في القصص منه».

ويعد إيمانه العديد من الآيات القرآنية الشاهدة على هذه الحقيقة، يعق قائلًا: «وبناء على ما تقدم، لا مجال لرمي الإسلام بتأيد الاستبداد، مع تأسيسها على منات من أمثال هذه الآيات البينات فالإسلامية مؤسسة على أصول الحرية برفعها كل سيطرة وتحكم، وبأمرها بالعدل والمساواة والقسط والإخاء، وبحضنها على الأحسان والتحاب» [الأعمال الكاملة ص ١٤٥، ١٤٧].

٤ - وإذا كان الكواكبي مسلمًا سلفيًا، أي يدعو إلى العودة - في الدين ونموذج الإصلاح الإسلامي ومرجعيته - إلى منابع الجوهريّة النقية الأولى والأصلية للإسلام، فيقول: «يجب أن نترك جانبًا اختلاف المذاهب التي نحن متبوعها تقليدًا، وأن نعتمد ما نعلم من صريح الكتاب، وصحيح السنة، وثابت الإجماع، وذلك لكيلا نتفرق في الآراء وليكون ما نقرر»

مقبولا عند جميع أهل القبلة إذ إن مذهب السلف هو الأصل
الذي لا يرد، ولا تستنكف الأمة أن ترجع إليه وتجتمع عليه
في بعض أمهات المذاهب وأن تجتمع على ما نفهمه من
النصوص، أو ما ينحقيق عندنا حسب طاعتنا أنه جرى عليه
السلف، وبذلك نتحد وجهتنا، [الأعمال الكاملة ص ٢٤١]

كما أن الجمعية، التي كونها مؤتمراً «أم القرى» - جمعية تعليم
الموحدين - قد نصت لاحتياجها - في الفصل الثاني - المادة ١٦
على أن «توفق الجمعية مسلكها الديني على المشرع السلفي
المعتدل» [الأعمال الكاملة ص ٣٤١]

إذا كان هذا هو الكواكبي المسلم السلفي فكيف يكون
علمانياً؟

٥ - وإذا كان العلمانيون - وأشباههم - قد نظروا بإعجاب
وراحبية إلى «التنظيمات العثمانية» التي اتجهت فيها
الدولة العثمانية غرباً - منذ أواخر ثلاثينيات القرن التاسع
عشر - عندما أخذت في استعارة النموذج الغربي وتقليده،
فإن الكواكبي كان على العكس من موقف هؤلاء العلمانيين
فلقد رأى في هذا التوجه فقداناً للأصالة الإسلامية التي
نشأت عليها الدولة العثمانية، مع العجز عن التقليد للغرب،
أو الإبداع لنا هو جديد.. ولقد جعل الكواكبي هذا السبب -
التحريب - أول أصول موارد الخلل في السياسة والإدارة
الجاريين في المملكة العثمانية، التي هي أعظم دولة بهم

شأنها عامة المسلمين، وقد جاء أكثر هذا الخلل في السنين
سنة الأخيرة. أي بعد أن اندفعت لتنظيم أمورها فعطلت
أصولها القديمة، ولم تحسن التقليد والإبداع.

ولذلك كانت الحالة في الدولة قبل التنظيمات الخيرية « خيرا
منها بعدها » [الأعمال الكاملة ص ٣٢٠، ٣٢١].

كما ذكر الكواكبي أن من أسباب الخلل في الدولة العثمانية
« تضبيع حرمة الشرع بتعطيل أحكامه » [الأعمال الكاملة ص
٣٢٢]

كذلك كان الكواكبي عدواً للإعجاب بالأجانب وتقليدهم - الأمر
الذي يباعد بينه وبين العلمانية، التي هي تقليد النموذج الأجنبي
الغربي في علاقة الدين بالدولة - فهو القاتل - دفاعاً عن تميز
الهوية العربية الإسلامية - أن من أفتح آثار الحور الاندفاع لتقليد
الأجانب واتباعهم فيما يظنونهم رفعة وطلاقة وتمدناً كاستحسان
ترك التعصب في الدين والافتخار به والاستحياء من الصلاة في
غير الخلوات، وإهمال التمسك بالعادات القومية والفقود عن
المناسك والتراحم كي لا ينجم من ذلك راحة التعصب الديني. وإن
كان على الحق « [الأعمال الكاملة ص ٣٣٠]

وهو الداعي شتباب الأمة الإسلامية إلى « أن يفخروا بدينهم
فيحرصوا على القيام بمبانيه الأساسية. وأن يحيوا حياة قوم
كل فرد منهم سلطان مستقل في شئونه لا يحكمه غير الدين »

كما يهاجم « الثائنة المتفرنجة » لأنهم لا خلق لهم يتكاسلون عن الصلاة التي هي عماد الدين مع أن الطهارة والوضوء هما - بمنطقهم ولسانهم - عين « التوالت » أو بعضه.. وأفعال الصلاة هي عين « الجمستيك » وأكمل منه مع أن الصلاة والصوم لو لم يكن فيهما غير أنهما شعار يعرف بهما المسلم أخاه تكفى. ولذلك كان من حكمة الشرع حفظه ترك سنة الأسلاف وتقليد الأغيار ولو في اللباس » [الأعمال الكاملة ص ٢٣٠، ٢٣١].

٦ - وإن كان الذهاب لاستقصاء نصوص الكواكبي، التي تجعل من الإسلامية النموذج والفلسفة للإصلاح، قد يستدعي ملء الصفحات العديدة بهذه النصوص، الأمر الذي يخرج بهذه الدراسة عن إطارها، فإن الكواكبي قد ذهب - فوق ذلك - إلى نقد الحكماء الغربيين الذين استبعدوا الدين من مناهج الإصلاح والترقي والنهوض. ورأى أن هذا التوجه الغربي - العلماني - إنما مرجعه طبيعة الدين النصراني المخالفة لطبيعة الإسلام. فإذا كان هناك عذر لهؤلاء الحكماء الغربيين في التوجه إلى العلمانية، فإن النصرانية هي السبب. ومن ثم فلا عذر ولا مبرر لاختيار العلمانية - التي تستبعد الدين من المرجعية الإصلاحية - في ظل الإسلام.

لقد طرق الكواكبي أبواب هذه القضية، فقطع الطريق على أية محاولة لاتهامه بالعلمانية. وذلك عندما قال عن سبيل الإصلاح

«لقد سلك الأنبياء، عليهم السلام، في إنقاذ الأمم من فساد الأخلاق مسلك الابتداء أولاً بفك العقول من تعظيم غير الله والإنعاز لسواه، وذلك بتفوية حس الإيمان المفطور عليه وجدان كل إنسان، ثم جهدوا في توير العقول بمبادئ الحكمة، وتعريف الإنسان كيف يملك إرادته، أي حريته في أفكاره، واختياره في أفعاله، وبذلك هدموا حصون الاستبداد وسدوا منبع الفساد

ثم بعد إطلاق زمام العقول، صاروا ينظرون إلى الإنسان بأنه مكلف بقانون الإنسانية ومطالب بحس الأخلاق، فبعضونه ذلك بأساليب التعليم المقتنع وبث التربية التهذيبية

والحكماء السياسيون الأقدمون، اتبعوا الأسياء، عليهم السلام، في سلوك هذا الطريق وهذا الترتيب، أي بالابتداء من نقطة دينية فطرية تؤدي إلى تحرير الضمائر، ثم بالتتابع طريق التربية والتهذيب بدون فتور ولا انقطاع

أما المتأخرون من قادة العقول في الغرب، فمنهم فئة سلكوا طريق الخروج بأسمهم من حظيرة الدين وأدائه النفسية إلى هضاء الإطلاق وتربية الطبيعة، زاعمين أن الفطرة في الإنسان أهدي به سبيلاً، وحاجته إلى النظام تغنيه عن إعانة الأديان، التي هي كالمخدرات، سموم تعطل الحس بالهموم ثم تذهب بالحياة فيكون ضررها أكبر من نفعها.

وقد سبق هؤلاء الغلاة فئة اتبعوا أثر الشيبين، ولم تحفل بطول الطريق، وتعبه، فتجحت ورسخت، واعنى بذلك الفئة أولئك

الحكماء الذين لم يأتوا بدين جديد، ولا تمسكوا بمعاداة كل دين كمؤسسي جمهورية الفرنسيين، بل رتقوا فتوق الدهر في دينهم بما نقحوا وهذبوا وسهلوا وقربوا، حتى جددوا، وجعلوه صالحاً لتجديد خليق أخلاق الأمة.

في هذا النص يحدد الكواكبي منهجين للإصلاح

١ - منهج الأنبياء - والحكماء الأقدمين الذين اتبعوا منهج الأنبياء في الإصلاح بالدين.. والابتداء في الإصلاح من نقطة دينية فطرية تؤدي إلى تحرير الضمائر.

٢ - ومنهج «قادة العقول» أي أصحاب العقلانية المجردة من الدين الدين - سلكوا طريق الخروج بأمتهم من حظيرة الدين وأدابه النفسية، إلى فضاء الإطلاق وحرية الطبيعة. ولقد حجب الكواكبي عن أصحاب هذا المنهج - العلماني - صفة «الحكماء».

ثم تحدث عن الغلاة منهم، الذين أسسوا الجمهورية الفرنسية على العلمانية.. بدلاً من أن يسلكوا طريق الحكماء في تجديد الدين حتى تتجدد به أخلاق الأمة.

وبعد هذا التحديد والتمييز لمناهج الإصلاح - الإصلاح بالدين - أو الإصلاح العلماني اللاديني - دعا الكواكبي الشرقيين إلى طريق الإصلاح بالدين المتجدد. فقال: «ما أحوج الشرقيين أجمعين إلى حكماء يجددون النظر في الدين فيرجعون به إلى

أصله الصبين البريء من حيث تمليك الإرادة، ورفع البلاد من كل ما يشين، [فهو] المخفف شقاء الاستبداد والاستعباد، المبصر بطرائق التعليم والتعلم الصحيحين، لقيام التربية الحسنة، واستقرار الأخلاق المنتظمة، مما به يصير الإنسان إنساناً، وبه - لا بالكفر - يعيش الناس إخواناً.

وبعد تحديد الكواكبي للمسلمين وعموم الشرقيين طريق الدين لا الكفر - طريق التجديد الديني لا العلمانية والعلو العلماني - سبيلاً للتقدم والنهوض والترقى - حذر الشرقيين من طريق الغرب - طريق العلمانية اللادينية - فقال - ليس من شأن الشرقي أن يسير مع الغربي في طريق واحد، فإن طباعه لا تطاوعه على استماعة ما يستحسسه هذا الغربي - [الأعمال الكاملة ص ١٨٤-١٨٧]

ثم يعود الكواكبي إلى تأصيل تمايز طريق النهضة الإسلامية عن طريق النهضة الغربية، لافتاً الأنظار والأفكار إلى أن مرجع هذا التمايز والاختلاف هو تميز الإسلام عن النصرانية - قطيعة الإسلام الشاملة مغايرة لطبيعة النصرانية - التي وقفت عند الفرد وخالص الروح - وعقلانية الإسلام مناقضة للأعقلانية النصرانية الغربية.

نعم، لقد عاد الكواكبي إلى تأصيل تمايز طرق الإصلاح والنهوض في الشرق الإسلامي عنها في الغرب النصراني، فقال - إن بعض الاجتماعيين في الغرب يرون أن الدين يؤثر على الترقى الأفرادي ثم الاجتماعي تأثيراً معطلاً، كفعل الأفيون في

الحس، أو حاجبنا، كالغيم يغطي نور الشمس، وهناك بعض الغلاة يقولون الدين والعقل ضدان متراحمان في الرعوس، وإن أول نقطة من الترقى تبدئ عند آخر نقطة من الدين، وإن أصدق ما يستدل به على مرتبة الرقى والانحطاط في الأفراد أو في الأمم الغابرة، والحاضرة، هو مقياس الارتباط بالدين قوة وضعفا

وهذه الآراء كلها صحيحة لا مجال للرد عليها، ولكن بالنظر إلى الأدیان الخرافية أساسا أو التي لم تقف عند حد الحكمة، كالدين الميتى على تكليف العقل يتصور أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد لأن مجرد الأذعان لما لا يعقل برهان على فساده مراكز العقل ولهذا أصبح العالم المتمرد بعد الانتساب إلى هذه العقيدة من العار لأنه شعار الحق

أما الأدیان الميتية على العقل المحض، كالإسلام الموصوف بدين الفطرة، الإسلام دين القرآن، أي الدين الذي يقوى على فهمه من القرآن كل إنسان غير مقيد الفكر فلا شك أن الدين إذا كان مبنيا على العقل، يكون أفضل صارف للفكر عن الوقوع في مضائد المخرفين، وأنفع وأزاع يضبط النفس من الشطط، وأقوى مؤثر لتهديب الأخلاق وأكبر معين على تحمل مشاق الحياة، وأعظم منشط على الأعمال المهمة الخطرة، وأجل مثبت على المبادئ الشريفة، وفي النتيجة، يكون أصح مقياس يستدل به على الأحوال النفسية في الأمم والأفراد رقى وانحطاطا . . .
[الأعمال الكاملة ص ٢٠٠ - ٢٠٢]

هكذا أشتبع الكواكبي القضية بحثاً وتمحيصاً، فلم يكتف
بالانحياز - عبر الصفحات العديدة من آثاره الفكرية - إلى منهاج
الإصلاح بالإسلام وإنما انتقد العلمانية الغربية وغلوها
اللا ديني.

معلماً أنه إذا عاز أن يكون لها ما يبررها في ظلال النصرانية
- التي تدع ما لقيصر لقيصر، مكتفية بما لله - أي بالخلاص
الفردى للروح فإن هذه العلمانية لا صبر لها، ولا حاجة إليها
ولا يمكن أن تكون تقبولة في ظلال الإسلام.

لقد كان الكواكبي صديقاً للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
وصديقاً للإمام النسيخ محمد رشيد رضا، ونحن نجد في آثاره
الفكرية العديد من الشواهد على أنه كان عالماً متميزاً في مدرسة
الإحياء الديني، التي أرادت تجديد دنيا المسلمين بتجديد دين
الإسلام، والتي أعلنت عن أولوية النهضة الدينية - ليأتي النظام
السياسي تبعاً للدين - كما يقول الكواكبي (الأعمال الكاملة
ص ٣٦١) - لأن الإصلاح كل الإصلاح - إنما يكون - أولاً وأخيراً
- بالإسلام.. وليس بالعلمانية، التي تستبعد الإسلام..

كان ذلك هو القاسم المشترك بين أعلام هذه المدرسة الإحيائية
■ ولقد قرأناه عند رقاعة الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ / ١٨٠١ -
١٨٧٣ م) في نقده للعلمانية اللا دينية وفلسفتها الوضعية -
التي رأها وخبرها في باريس - الذي قال:

أيوجد مثل باريس ديار

شموس العلم فيها لا تغيب؟

ولسبل الكفر ليس له صباح

أما هذا، وحققكم، عجيب!

فهذه المدينة، كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة، مشحونة بكثير من الفواجر والبذع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية

إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لا ينبع دينه، ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المحسنة والمفحمة بالعقل، أو فرقة من الأباحيين الذين يقولون إن كل عمل يأتى فيه العقل صواب، ولذلك فهو لا يصدق بشيء مما فى كتب أهل الكتاب، لظروحه عن الأمور الطبيعية .

وبعد رفض الطهطاوى لهذا النموذج الغربى فى الفلسفة الوضعية، وقى الموقف عن الدين ومن الانحياز إلى الطبيعة فى مواجهة الدين، أعلن الانحياز للنموذج الإسلامى والمرحعية الإسلامية فى الإصلاح والتقدم والنهوض.. فقال

«إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشارع والتكاليف الشرعية والسياسة التى عليها مدار نظام العالم، مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن العوائق والتشبهات لأن الشريعة والسياسة مبيتان على الحكمة

المعقولة لنا أو التعبدية التي يعلم حكمتها المولى سبحانه
وليس لنا أن نعتد على ما يحسنه العقل أو يفيحه إلا إذا ورد
الشرع بتحسينه أو تفيحه.

والذي يرشد إلى تركية النفس هو سياسة الشرع ومرجعها
الكتاب العزيز الحامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول. مع
ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها في نظام
أحوال الخلق. كشرع الزواج المفضية إلى حفظ الأديان، والعقول
والأنساب، والأموال. وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه
يحصل به الغرض، كالبيع والإجارة والزواج وأصول أحكامها.
فكل رياضة لم تكن سياسة الشرع لا تنمى العاقبة الحسنى

ولا غيره بالنفوس القاصرة، الذين حكموا عقولهم بما
اكتسبوا من الخواطر التي ركنوا إليها نفسيتا وتقييحا. وظنوا
أنهم فازوا بالمقصود بتعدي الحدود.

فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع. لا بطرق
العقول المجردة

ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا درء
المفاسد. ولا ينافي المتجددات المستحصنة التي يخترعها من
منحهم الله العقل والهمم الصناعة.

وإن المعاملات القهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما
أخلت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحالة

ومن أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو
من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية

إن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشاريعه لم يغادر من
أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي
والرى ولم تخرج أحكام السياسة عن المذاهب الشرعية لأنها
أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع

وإن مدار سلوك جادة الرشاد والاصابة منوط - بعد ولي الأمر
- بهذه العصابة - عصبة طلاب الأزهر وعلمائه - التي ينبغي
أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر

(أ) السنة التشريفية، ورفع أعلام التشرية المنيفة.

أباً معرفة سائر المعارف البشرية، التي لها مدخل
في تقدم الوطنية...^(١)

هكذا أعلن الطهطاوى في حتم وعمق ووضوح - انخياره إلى
المرجعية الإسلامية في الإصلاح والتقدم والنهوض - بعد أن
رفض النموذج الوضعي الغربي عن وعى بأوجه الخلاف بينه
وبين النموذج الإسلامي

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى] ج ١ ص ٣٦٩، ٣٧٠، ٥٣٣، ٥٤٤، ج ٢ ص
٢٤، ٧٩، ١٥٩، ١٦٠، ٣٨٦، ٣٨٧، ٤٧٧ دراسة وتحقيق - محمد عمارة - طبعة
بيروت - ١٩٧٣ م

فلما جاء جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤-١٣١٤هـ/ ١٨٣٨-١٨٩٧م] كانت دعوته وحركته التأسيس للتيار الإحيائى للإسلام، والذي عدا عنواناً على نقد النموذج الغربى فى التحديث وعلى الانحياز إلى النموذج الإسلامى فى الإصلاح وفى ذلك كتب فقال

« انه لا ضرورة فى ايجاد المنفعة إلى اجتماع الوسائط وسلوك الصالحات التى جمعها وسلكتها بعض الدول الغربية ولا ملجئ للشرقى فى بدايته أن يقف موقف الأوربى فى نهايته بل ليس له أن يطلب ذلك وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه - [من دعاة التحديث على النمط الغربى] فقد أوفر - [عجز] - نفسه وأمنه وقرا وأعجزها وأعوزها..

لقد شيد العثمانيون عددا من المدارس على النمط الجديد وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون إليه من العلوم والمعارف والآداب وكل ما يسفونه ثمرنا . وهو فى الحقيقة ثمرن للبلاد التى نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى!

فهل انتفع المصريون والعثمانيون مما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة نعم ربما وجد بينهم أفراد يتشوقون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها وسموا أنفسهم زعماء الحرية . ومنهم آخرون قلبوا أوضاع المبانى والمساكن وبدلوا هيئات المأكلا والملابس والفرش

والآنية. وسائر الماعون، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية. وعدوها من مفاخرهم فنفوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم وأمانوا أرباب الصنائع من قومهم. وهذا جدرع لآلئ الأمة يتسوه وجهها. ويحط بشأنها.

لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة. المستحلين أطوار غيرها. يكمون فيها منافذ لتسرق الأعداء إليها. وطلّاع لحيوش الغالبيين وأرباب الغارات. يمهدون لهم السبيل. ويفتحون الأبواب. ثم يثبتون أقدامهم

إن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى ليسوا أرباب تلك العلوم التي ينقلونها. وإنما هم حملة نفقة لا براعون فيها المصبة ببها وبين مشارب الأمة وطباعها وهم ربما لا يقصدون إلا خبيرا أن كانوا من المخلصين. لكنهم يوسعون بذلك الخروق حتى نعوذ أبوابا لتدخل الأجنبي قبهم تحت اسم النصحاء. وعنوان المسلحين. وطلاب الإصلاح. فيذهبون بأمتهم إلى الفناء والاضمحلال. وينس المصير.

إن نتيجة هذا التقليد للتمدن الغربي عند هؤلاء الفاسدة المقلدين ليست إلا توطيد المسالك والركون إلى قوة مقلديهم. فيبالغون في تطمين النفوس وتسكين القلوب حتى يزيلوا الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوشهم ويحفظون بها استقلالهم ولهذا منى طرق الأجنبي أرضا لاية أمة تر هؤلاء المتعلمين - المقلدين - فيها أول من يقبلون عليهم ويعرضون

أنفسهم لخدمتهم كأنما هم منهم، ويعدون الغلبة الأجنبية في بلادهم أعظم بركة عليهم»^(١).

وبعد هذا النقد اللاذع - إلى حد الاتهام بالعصاة - للمقلدين للممولج الغربي في التمدن والتحديث ذهب جمال الدين الأفغاني إلى الحديث عن «البديل الحضاري الإسلامي» المنطلق من مرجعية الدين الإسلامي في النهضة والإصلاح. فقال:

«إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سعادتها، وعليه مدارها. ولقد اكتسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد وأودع نفوسهم ثلاث خصال. كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبنائها هيئتها الاجتماعية وأساس محكم لمدنيتها. وفي كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات الكمال والرفق إلى ذرى السعادة، ومن كل واحد وارع قوى يباعد النفوس عن الشر، ويرعها عن مفارقة الفساد، ويصدها عن مقاربة ما يبيدها ويبيدها»

العقيدة الأولى التصديق بأن الإنسان ملك أرضي، وهو أشرف المخلوقات.

والثانية يقين كل ذي دين بأن أمنه أشرف الأمم، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل.

(١) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٩١ - ١٩٧، ٥٢٣ دراسة وتحقيق د محمد عمارة - طبعة القاهرة - سنة ١٩٦٨م

والثالثة، جرّمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال بهيته للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي

فلم تبق رغبة في أن الدين هو السبب المفرد لسعادة الإنسان ولو قام الدين على قواعد الأمر الإلهي الحق، ولم يخالطه شيء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه، فلا ريب أنه سيكون سبباً في السعادة النامة والنعيم الكامل، ويذهب بمعتقديه جواد الكمال الصوري والمعنوي، ويصعد بهم إلى دروة الفضل الظاهري والباطني، ويرفع أعلام المدنية لطلابها بل يقيض على التمدن من ديم الكمال العقلي والنفسى ما يظفّهم بسعادة الدارين

لا أظيل عليك بحثاً، ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان، ولكنى أستلفت نظرك إلى سبب يجمع الأسباب، ووسيلة تحيط بالوسائل، أرسل فكرك إلى نشأة الأمة التي حملت بعد نبأهة، واطلب أسباب نهوضها الأول. إنه دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مذك للنفوس، مظهر للقلوب من أدران الخسائس، منور للعقول بإتراق الحق من مطالع قضاياه، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبانى الاجتماعات البشرية، وحافظ وجودها، ويتأدى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية.

فإن كانت هذه شرعة تلك الأمة، ولها وردت وعنها صدرت، فما نراد من عارض خللها، وهبوطها عن مكانتها، إنما يكون من

طرح تلك الأصول ونبذها ظهريا فعلاجها الناجع إنما يكون
برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في
بدايته. ولا سبيل للياس والقنوط، فإن جرائم الدين متصلة
في النفوس والقلوب مطمئنة إليه وفي زواياها نور خفي من
محبتة، فلا يحتاج القائم بأحياء الأمة إلا إلى نفخة واحدة
يسرى نفسها في جميع الأرواح لأقرب وقت. فإذا قاموا وجعلوا
أصول دينهم الحقة نصب أعينهم، فلا يعجزهم أن يبلغوا في
سيرهم منتهى الكمال الإنساني.

ومن طلب إصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه، فقد
ركب بها شططا، وجعل النهاية بداية، وانعكست التربية وانعكس
فيها نظام الوجود، فينعكس عليه القصد ولا يزيد الأمة
إلا نحسا، ولا يكتسبها إلا تعسا.

ومن يعجب من قولي إن الأصول الدينية الحقة تنسئ للأمم
قوة الاتحاد، وانتلاف الشمل، وتفضيل الشرف على لذة الحياة،
وتبعثها على اقتناء الفضائل، وتوسيع دائرة المعارف، وتنتهي
بها إلى أقصى غاية في المدنية، فإن عجبى من عجبه أشد.

ودونك تاريخ الأمة العربية وما كانت عليه قبل الإسلام من
الهمجية حتى جاءها الذين فوجدها، وقواها، ونور عقلها وقوم
أخلاقها، وسدز أحكامها، فسادت على العالم ..

(١) المصدر السابق ص ١٣٦، ١٤١، ١٧٣، ١٩٧ - ١٩٩

هكذا صاغ جمال الدين الأفغاني - لحركة الإحياء الإسلامي -
«بيان الإصلاح بالإسلام».

■ أما الإمام محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م]
فكان المهندس الأول الذي فصل الحديث في هذا الاتجاه -
الإصلاح بالإسلام.

لقد انتقد مادية المدنية الغربية . فقال

«إن هذه المدنية هي مدنية الملك والسلطان، مدنية الذهب
والفضة، مدنية الخخفخة والبهرج، مدنية الختل والنفاق
وحاكمها الأعلى هو الجنه، عند قوم، و اللبرا عند قوم
آخرين، ولا دخل للإنجيل في شيء من ذلك».

وتعصب من فلاسفتها وعلمائها - الذين اكتشفوا كثيرا مما
يفيد في راحة الإنسان ونوفر راحته وتعزير نعمته، ثم
أعجزهم أن يكتشفوا طبيعة الإنسان ويعرضوها على الإنسان
حتى يعرفها فيعود إليها - لقد صقلوا المعادن حتى كان
الحديد اللامع المضيء، أفلا يفسر لهم أن يجلوا ذلك الصدا
الذي غشي القشرة الإنسانية ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود
لها لمعاتها الروحية؟

لقد حار الفيلسوف «هربرت سبنسر» [١٨٢٠ - ١٩٠٣ م] في
حال أوربا، وأظهر عجزه مع قوة العلوم فأبر الدواء، أنه

الرجوع إلى الدين الذي هو الذي كشف الطبيعة الإنسانية وعرفها إلى أربابها في كل زمان، لكنهم يعوّدون فيجهلون بها...^(١) ومعد هذا النقد لمادية المدنية الغربية، تلك المادية التي أعجزتها عن اكتشاف الدين الفطري للإنسان، تحدث الإمام محمد عبده عن وسطية الإسلام، التي جعلته دين الفطرة الإنسانية السوية. وعن تفردّه بكونه المسهاج الأول والأفعل في الإصلاح.. فقال:

«لقد ظهر الإسلام، لا روحياً مجرداً، ولا جسدياً خامداً بل إنسانياً وسطاً بين ذلك، أخذاً من كلا القبيلين بنصيب. فنوافر له من علامة الفطرة البشرية ما لم ينوافر لغيره، ولذلك سمي نفسه دين الفطرة وعرف له ذلك خصوصه اليوم، وعدوه المدرسة الأولى التي يرقى فيها البراءة على سلم المدنية. لقد جاء الإسلام كاملاً للتحرير، وألفه في البيت ونظاماً للفلك امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه...^(٢) ثم تحدث عن الإسلام كسبيل مفرد للتقدم والنهوض والإصلاح فقال:

«إن أهل مصر قوم أذكاء، يغلب عليهم نبيذ الطباع، واشتداد القابلية للتأثر، لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية وهي أن ينزّد لا

(١) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢، ص ٣٠٥، ١٩٥. دراسة وتعليق

د. محمد حمارة - طبعة بيروت - سنة ١٩٧٢ م.

(٢) المصدر السابق ج ٢، ص ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٨٧.

تثبت في أرض إلا إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض، ويتنفس بهوائها، ولا ماتت البذرة بدون غيب على طبقة الأرض وجودها، ولا على البذرة وصحتها، وإنما الغيب على النادر أنفس المصريين أشربت الانقياد إلى الدين حتى صار طبعها فيها، فكل من طلب إصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذرا غير صالح لثمرة النى أودعه فيها، فلا تثبت، ويضيع تعبها، ويخفق سعيه، وأكثر شاهد على ذلك ما شوهد من أثر التربية التي يسمونها أدبية من عهد محمد على [١١٨٤ - ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩ - ١٨٧٠م] إلى اليوم فإن المأخوذ بهما لم يزدادوا إلا فسادا وإن قيل إن لهم شيئا من المعلومات - فما لم تكن معارفهم وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم

إن سبيل الدين، لمريد الإصلاح في المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها، فإن إيمانهم من طرق الأدب والحكمة العارضة عن صبغة الدين - يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا

وإذا كان الدين كافلا بتهديب الأخلاق وإصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهلها من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم والعناء في إرشاعهم إليه أخف من إحداث ما لا أمام لهم به، فلم العذول عنه إلى غيره^(١)

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٠٩ - ٦٣١

هكذا تبلور في شرقنا الإسلامي تيار «الإصلاح بالإسلام» في مواجهة تيارات «التحديث على النمط الغربي» منذ بدايات الاحتكاك بيننا وبين النموذج الحضاري الغربي، الذي جاءنا في ركاب الغزوة الأوربية الحديثة.

وتألق في هذا الميدان أعلام للإحياء الإسلامي، من مثل الشيخ حسن العطار، إلى رفاعة الطهطاوي، إلى جمال الدين الأفغاني، وحتى المهندس الأكبر لهذا التيار، الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، الذي تكونت من حول مشروعه الإصلاحى أكبر المدارس الفكرية، الممتدة أعضائها حتى هذه اللحظات.

وهى المدرسة التى كان الكواكبى علماً متميزاً بين أعلامها العظام. وليس - كما زعم أنطون سعادة، و«جان داية» - من أنه كان إمام العلمانية فى فكرنا الحديث!

المصادر والمراجع

- ١- الأفغاني [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عسارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م
- ٢- أنطون سعادة [الأثار الكاملة] - طبعة سنة ١٩٤٠ م
- ٣- جان داية [الإمام الكواكبي فصل الدين عن الدولة] - طبعة المملكة المتحدة - سنة ١٩٨٨ م.
- ٤- الطهطاوي [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عسارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م.
- ٥- عبد الرحمن الكواكبي [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عسارة - طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م.
- ٦- د. محمد حميد الله (محقق) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] - طبعة القاهرة - سنة ١٩٥٦ م.
- ٧- محمد رشيد رضا: [مجلة المنار] سنة ١٢١٧ هـ و ١٣٢٠ هـ
- ٨- محمد عبده: [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عسارة - طبعة بيروت - ١٩٧٢ م.

٣	تقديم
٦	١- بطاقة حياة
١٠	٢- دعوى علمانية الكواكبي
٢١	٣- الإسلام والعلمانية
٣٩	٤- الكواكبي والفصل بين السلطتين
٤٢	٥- الرض الكواكبي للعلمانية
٦٧	المصادر والمراجع
٦٨	الفهرس

سلسلة «في التنوير الإسلامي»

١. الدعوة الإسلامية في عيون عربية
٢. الغرب والإسلام
٣. أم حسان التوحيدي
٤. دراسة قرآنية في فقه المنهج الحضاري
٥. ابن رشد بين الغرب والإسلام
٦. الانتماء الثقافي
٧. شعير العائش
٨. التنوير في الحضارة الإسلامية
٩. صراع القيم بين الغرب والإسلام
١٠. يوسف القرضاوي: المرحمة الفكرية والفتوى الفكرية
١١. تأملات في التنوير الحضاري لقول الكريم
١٢. عندما نعت مصر في دين الله
١٣. الترياق الكاشف لروحانية ربه
١٤. السباح الغفلى
١٥. المنهج الثقافي
١٦. منهجية التفكير نور النظرية والتطبيق
١٧. تراث الدنيا بتحديد الدين
١٨. الثوابت والمتغيرات في النقطة الإسلامية الحديثة
١٩. نقاش في الإسلام وأصول العلم
٢٠. التقدم والإصلاح بالتنوير القديم أم الجديد
٢١. فكر حركة الاستنارة وتناقضات
٢٢. حرية التعبير في الغرب من حسان رشدي إلى زاوية حرودي
٢٣. إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين
٢٤. الحضارات العالمية تدافع أم صراع
٢٥. التنمية الاجتماعية بالغرب أم بالإسلام
٢٦. الحملة العربية في العراق
٢٧. الإسلام في عهد خرمية - دراسات مؤرخة
٢٨. الأقليات الدينية والقومية تنزع ووحدة أم تغليب والفتنة
٢٩. موجات المرأة وقضية المساواة
٣٠. نقرة المرأة وقضية المساواة
٣١. الدين والفرق والمساواة والشمولية والحرية
٣٢. حسان حسونة
٣٣. حسان حسونة
٣٤. حسان حسونة
٣٥. حسان حسونة
٣٦. حسان حسونة
٣٧. حسان حسونة
٣٨. حسان حسونة
٣٩. حسان حسونة
٤٠. حسان حسونة
٤١. حسان حسونة
٤٢. حسان حسونة
٤٣. حسان حسونة
٤٤. حسان حسونة
٤٥. حسان حسونة
٤٦. حسان حسونة
٤٧. حسان حسونة
٤٨. حسان حسونة
٤٩. حسان حسونة
٥٠. حسان حسونة
٥١. حسان حسونة
٥٢. حسان حسونة
٥٣. حسان حسونة
٥٤. حسان حسونة
٥٥. حسان حسونة
٥٦. حسان حسونة
٥٧. حسان حسونة
٥٨. حسان حسونة
٥٩. حسان حسونة
٦٠. حسان حسونة
٦١. حسان حسونة
٦٢. حسان حسونة
٦٣. حسان حسونة
٦٤. حسان حسونة
٦٥. حسان حسونة
٦٦. حسان حسونة
٦٧. حسان حسونة
٦٨. حسان حسونة
٦٩. حسان حسونة
٧٠. حسان حسونة
٧١. حسان حسونة
٧٢. حسان حسونة
٧٣. حسان حسونة
٧٤. حسان حسونة
٧٥. حسان حسونة
٧٦. حسان حسونة
٧٧. حسان حسونة
٧٨. حسان حسونة
٧٩. حسان حسونة
٨٠. حسان حسونة
٨١. حسان حسونة
٨٢. حسان حسونة
٨٣. حسان حسونة
٨٤. حسان حسونة
٨٥. حسان حسونة
٨٦. حسان حسونة
٨٧. حسان حسونة
٨٨. حسان حسونة
٨٩. حسان حسونة
٩٠. حسان حسونة
٩١. حسان حسونة
٩٢. حسان حسونة
٩٣. حسان حسونة
٩٤. حسان حسونة
٩٥. حسان حسونة
٩٦. حسان حسونة
٩٧. حسان حسونة
٩٨. حسان حسونة
٩٩. حسان حسونة
١٠٠. حسان حسونة

٣٢- مخاطر العولمة على الهوية الثقافية	د محمد عمارة
٣٣- الفناء والموسيقى خلال أم حوام؟	د محمد عمارة
٣٤- صورة العرب في أمريكا	ترجمة وتعليق / أ. ثابت عبد
٣٥- هل المسلمون أمة واحدة؟	د محمد عمارة
٣٦- السنة والبدعة	تقديم وتحقيق / د محمد عمارة
٣٧- الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان	تقديم وتحقيق / د محمد عمارة
٣٨- قضية المرأة بين التحرير والتمركز حول الأنثى	د عبد الوهاب المسيري
٣٩- مركسة الإسلام	أ. منصور أبو شافعي
٤٠- من الإسلام كما تؤمن به - صواب وملاح	د يوسف القرضاوي
٤١- صورة الإسلام في التراث العربي	ترجمة / أ. ثابت عبد
٤٢- تحليل الواقع بمناهج لغاهات العروبة	د محمد عمارة
٤٣- القدس بين اليهودية والإسلام	د محمد عمارة
٤٤- مآرق المسيحية والعلانية في أوروبا (شهادة ألمانية)	تقديم وتعليق / د محمد عمارة
٤٥- الآثار التربوية للعبادات في التوح والأخلاق	د صلاح الدين سلطان
٤٦- الآثار التربوية للعبادات في العقل والوجد	د صلاح الدين سلطان
٤٧- السنة النبوية والمعرفة الإنسانية	د محمد عمارة
٤٨- نظرات حصارية في القصص القرآني	د سيد بسولي
٤٩- الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين	د محمد عمارة
٥٠- الإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان	تقديم / د محمد سليم العوا
٥١- من القرآن الكريم	الشيخ / أمين انخولي
٥٢- في فقه الأئليات الثلاثة	د فهد جابر عتوار
٥٣- مستقبلنا بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية	د محمد عمارة
٥٤- مركسة التاريخ	أ. منصور أبو شافعي
٥٥- نقل الأعضاء في ضوء الشريعة والقانون	د سنان / طارق البشري
٥٦- السنة التشريعية وغير التشريعية	محمد الفاضل بن عاشور
٥٧- شبهات حول الإسلام	الشيخ / علي الخفيف
٥٨- نحو طمس نفس إسلامي	د محمد عمارة
٥٩- والعلماء بين العالمية ونضام الحصار	د وائل أبو غنيم
٦٠- بناء المفاهيم الإسلامية	عضبة فتحى العويش
٦١- المستقبل الاجتماعي للأمة الإسلامية	د سيف الدين عبد الفتاح
٦٢- شبهات حول القرآن الكريم	د محمد عمارة

د محمد عمارة
د محمد عمارة
ترجمة وتعليق / أ. ثابت عبد
د محمد عمارة
تقديم وتحقيق / د محمد عمارة
تقديم وتحقيق / د محمد عمارة
د عبد الوهاب المسيري
أ. منصور أبو شافعي
د يوسف القرضاوي
ترجمة / أ. ثابت عبد
د محمد عمارة
د محمد عمارة
تقديم وتعليق / د محمد عمارة
د صلاح الدين سلطان
د صلاح الدين سلطان
د محمد عمارة
د سيد بسولي
د محمد عمارة
تقديم / د محمد سليم العوا
الشيخ / أمين انخولي
د فهد جابر عتوار
د محمد عمارة
أ. منصور أبو شافعي
د سنان / طارق البشري
محمد الفاضل بن عاشور
الشيخ / علي الخفيف
د محمد سليم العوا
د محمد عمارة
د محمد عمارة
د وائل أبو غنيم
عضبة فتحى العويش
د سيف الدين عبد الفتاح
د محمد عمارة
د محمد عمارة

٦٣- آوبة العقل العربي

٦٤- في التحرير الإسلامي للمرأة

٦٥- روح الحضارة الإسلامية

٦٦- الغرب والإسلام افتراءات لها تاريخ

٦٧- السماحة الإسلامية

٦٨- الشيخ عبد الرحمن الكواكبي هل كان علمانياً؟

٦٩- صلة الإسلام بإصلاح المسيحية

٧٠- بين التمدد والتحديث

٧١- الموقف والتمدية المستقلة

٧٣- الرسالة القرآنية والتفسير الحضاري للقرآن الكريم

د. فؤاد زكريا

د. محمد عمارة

د. محمد عمارة

الشيخ / محمد الفاضل بن عاشور

تعليق وتقديم / د. محمد عمارة

د. محمد عمارة

د. محمد عمارة

د. محمد عمارة

الشيخ / أمين الحولي

تقديم / الإمام الأكبر الشيخ /

محمد مصطفى المراغي

تمهيد / د. محمد عمارة

د. سيف الدين عبد الفتاح

تقديم / د. محمد عمارة

د. إبراهيم البيومي غانم

تقديم / د. محمد عمارة

د. سيد سموقي حسن



احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع : www.enahda.com



إلى القارئ العزيز ..

في هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربي» هو تنوير علماني، يستبدل العقل بالدين، ويقيم قطيعة مع التراث-

فإن «التنوير الإسلامي» هو تنوير إلهي : لأن الله والقرآن والرسول - صلى الله عليه وسلم - أنوار تصنع للمسلم تنويراً إسلامياً متميزاً.

ولتقديم هذا « التنوير الإسلامي » للقراء، تصدر هذه السلسلة، التي يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامي المعاصر:

- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| • د. محمد عـارة | • المستشار/ طارق البشري |
| • د. سيف عبد الفتاح | • د. محمد سليم العوا |
| • أ. فهمي هويدي | • د. يوسف القرضاوي |
| • د. سيد سوقس | • د. كمال الدين إمام |
| • د. عبد الوهاب المسيري | • د. شريف عبد العظيم |
| • د. عادل حسـين | • د. صلاح الدين سلطان |

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح : لإضاءة العقل بأنوار الإسلام.

الناشر

